مسالك العطف

بين

الإنشاء والخبر

تأليف

الدكتور محمود توفيق محمد سعد

الأستاذ المساعد في جامعة الأزهر

الطبعة الأولى

١٤١٣هـ ١٩٩٣م



مسالك العطف

بين

الإنشاء والخبر

تأليف

الدكتور محمود توفيق محمد سعد

الأستاذ المساعد في جامعة الأزهر

الطبعة الأولى

١٤١٣هـ - ١٩٩٣م

مطبعة الأمانة

٣ شارع جنينة بدران شبرا - مصر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين * الرحمن الرحيم * مالك يوم الدين * وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وأمته ٠

أما بعد ،فان فقه بناء لغة النص هو غاية البلاغيين ونقاد العربية على اختلافهم منهجا وحركة ومدى فى استبصار أصول بنائه ، ومن أهم ما شغلوا به علائق القربى بين عناصره ومساربها فيه ، فان لبناء لغة النص ابداعا ووحيا خصوصية تسمو على بناء اللغة في مطارحة الدهماء ٠

وبناء لغة النص فى لحمته وسداه قائم على مناح عدة من الاعتلاق والتواصل تتباين تباين السياقات والغايات ، وقد كان لبعض هذه الأنماط والمسالك الاعتلاقية عناية خاصة عند علماء اللغة وتفسير النصوص : كان النسق بين العناصر بناسق ذا القدح المعلى فى عنايتهم ولا سيما البيانيون ، فقد عقدوا للعطف بين عناصر النص بابا عنوا فيه بابراز أهميته في فقه النص كمثل ما له من أهمية في بنائه ابداعا ، كان للامامين عبد القاهر وابى يعقوب السكاكى مقالا يصوران فيه مبلغ مالهذا النمط من منزلة ابداعا وفقها ٠ وبرغم مما ذكر البلاغيون من أهمية ذلك فان الناظر فى الحركة التأويلية عندهم لا بين نوعين من الأنساق اللغوية فى النص : الخبر والانشاء من تواصل بالعطف لا يحظى بما يتطلع اليه من ابلاغ فى التأويل يتناغى مع ما صدحوا به من منزلته فى فكرهم او فى بناء النص ، فنحن بحاجة الى النظر في هذا ، وفى الاوراق القادمة بحث موجز العبارة : يعرض ويفسر ويقوم بعض مقالة أهل العلم ثم يصطفى ما يراه الابلغ فى فقه بناء النص ابداعا ووحيا ٠ والله يهدى الى سواء السبيل ٠

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وأمته

والحمد لله رب العالمين

وكتبه

محمود توفيق محمد سعد

ما بين الانشاء والخبر

لكل قول مثير يدفع في النفس أثرا تشكل الفطرة البيانية في الانسان نسقا لغويا يشف عن ذلك الأثر • وهذا المثير قد يكون واقعا كونيا خارج الذات القابلة الفاعلة للانسان فيدفع اليها أثرا مما هو كائن فيه ، فيكون النسق اللغوي انعكاسا تقريريا لما هو كائن في ذلك الواقع الكونى ، وقد يدفع الى تلك الذات أثرا منبثقا منه فاعلا في الذات ما يدفعها الى التفاعل الشعورى مع ذلك الأثر تفاعلا يفجر فى الادراك العقلى توجها اعلاميا خاصا يشكل النسق اللغوى على نحو ما تشكيلا منضبطا بأطر محددة تحديدا عاما فى لسان العربية ، فيكون فى الأول خبرا وفى الاخر انشاء •

وكذلك قد يفعل الواقع النفسى والرغبة الفطرية في الانسان فتعكس أثرا يقرر ما هو ساكن في تلك النفس من رغبة ، أو يصور حقيقة ذلك الساكن فيها ، فيكون في الأول خبرا ، وفى الآخر انشاء •

وسواء كان الواقع الكونى أو النفسى هو المثير الدافع الى الذات أثرا فاعلا فان الأثر الأول فى كل يشكل تصورا معرفيا الذات وحدث بينهما ترابط على نحو ما ، فاذا الادراك الداخلى فكرا وشعورا يعمد الى الاعلام بأحد أمرين أو بهما معا : الاعلام بكينونة ذلك الترابط بين الذات والحدث ثبوتا أو انتفاء ، أو الاعلام بما ينبثق من الادراك لهذا الترابط بين الذات والحدث فى داخل النفس ، فاذا الفطرة البيانية الراشدة الواعية خصائص لسان العربية افرادا وتركيبا ، دالا ودلالة تعمد الى اصطفاء ما يقوم بتشكيل الوجود اللغوى القائم برسالة الاعلام عن ذلك التصور المعرفى السابق فيبنى النسق اللغوى على نحو يفهم المتلقى منه الغاية التى يرمى بالنسق اللغوى اليها ، ويكون للسياق اللغوى والحضارى الذى يدرج على لاحبه ذلك النسق فاعلية الابانة عن الأفق الدلالى الذى يرمى اليه من ذلك التشكيل منطوقا ومفهوما وذلك ما يكون فى التراكيب الخبرية •

والأثر فى الآخــر يشكل فى النفس تطلعا الى الابانة عن رغبة الذات القائلة فى تصور معرفى لحقيقة الترابط بين ذات وحدث اثبانا ونفيا أو رغبة فى تحقيق ذلك الترابط أو الكف عن تحقيقه أو الابانة عن منزلة تلك الرغبة فى النفس فاذا الفطرة البيــانية الراشــدة تصطفى ما يقوم بتشكيل نسق لغــوى يصور ماهية هذا التطلع وتلك الرغبة على نحو يهدى المتلقى الى أدراك ذلك التطلع وتلك الرغبة ماهية فارقة وصفة كاشفة ، فيدرك انه تطلع او رغبة فى شىء من تلك التى أشرنا اليها ، وذلك ما يكون فى التراكيب الانشائية •

تلك هى حقيقة ما يكون فى الــذات القائلة من قبــل ميلاد النسق اللغوى اخبارا وانشاء •

انقسام النسق الى هذين النوعين ليس مرده الى اشتمال أحدهما على نسبة كلامية لهــا تحقق فى الخارج تحكيه الصورة البيانية لهذا النسق ولا يكون للاخر ذلك • فان كلا من النسقين اللغوين الخبر والانشاء لــه نسبة كلامية قائمة بالترابط بين حدث وذات على وجه التمام ونسبة خارجة عن هذه النسبة الكلامية ، وان اختلف موقع هذه النسبة الخارجية فى كل ، فالانشاء له نسبة كلامية وأخرى خارجة عنها تطابقها حينا ولا تطابقها حينا آخر ، فقولك : (أكرم محمدا) له نسبة كلامية هى ارتباط حدث (الاكرام) بذات (محمد) ارتباطا ثبوتيا على سبيل طلب الايجاد ، ولــه نسبة خارجــة عن هذه الكلامية قــارة فى نفس المتكلم ، فان كان المتكلم بهــذا النسق طالبــا اكــرام محمد حقــا كانت الكلامية مطابقــة للخارجية القارة فى نفسه والا لم تكن مطابقة ، وفى الحالين لا يكون المتكلم بهــذا النســق قاصــدا الاعلام بمطابقة ما نطق لما فى نفسه بل يقصد احداث مدلول ما نطق وهو طلب الاكــرام وايجــاده بذلك اللفظ بحيث لا يحصل ذلك المعنى بدون ذلك النسق الانشائى ، فــان قصــد به المطابقة أى حكاية ما فى الخارجة وهو الطلب القائم بالنفس كان ذلك النســق الانشائى من استعماله فى الخبر ، وكذلك النسق الخبرى القائم على

قصد المطابقة بين الكلامية والخارجية اذا لم يقصد تلك المطابقة كان ذلك النسق الخبرى مستعملا فى الانشاء(١) ففرق ما بين الخبر والانشاء راجع الى أمرين (الأول) نوع النسبة الخارجيـة فى كل و (الآخـر) الى القصد بالكلامية :

الخارجية فى الخبر غيرهـا فى الانشاء ، هى فى الخبـر خارجـة عن الكلامية كائنة فى الواقع الكونى الخارج عن الذات القائلة ، ولذلك لـم يكن النسق اللغوى فى الخبر سببا فى مدلوله ، وفى الانشاء هى خارجة عن الكلامية كائنة فى الذات القائلة لا فى خارجها ، فالنسق الانشائى سبب لمدلوله .

وقصد المتكلم بالخبر مطابقة الكلامية للخارجية ، وفى الانشا لا يكون ذلك القصد بل هو الى ايجاد مضمون الكلامية فى خارج الـذات القائلة ، فمن نظر الى هذين الفرقين (نوع الخارجية ، ونوع القصـد فى كل) ذهب الى القول بمنع الجمع بين الخبر والانشاء بأداة من أدوات النسق ، لأن القصـد الجـزئى فى كل مختلف اختـلافا ذاتيـا وشـأن المنسوقات أن تتلاقى فى ذلك القصد ، فان اختلفا كان الارتباط بسـبيل آخر من سبل التواصل الدلالى غير الوصل بناسق .

ومن نظـر الى أن اختلاف القصـد الجـزئى واختلاف نـوع النسـبة الخارجية فى كل ليس فرقا ذاتيا مباعدا بين النسقين لتضاؤل أثره فى صحبة التوحد السباقى المدرج على لاحبه الأنساق اللغوية المختلفة خبرا وانشـاء ، وفى صحبة شمول الغـرض الكـلى من المقـال ذى الأنسـاق المتعددة ، فان للسـياق والغرض الكلى اقتدارا على ابطال أثر المفارقة غير الذاتية بين الاتساق ليبث فيهـا روح التواصل - من نظر الى ذلك ذهب الى العطف بين نسقين مختلفين خبرا وانشاء .

---

(١) ينظر : شروح التلخيص (حاشية الدسوقى) ١/١٦٦ ، ٢/٢٣٠

مذهب المانعين

مكونات النص الملفوظة والملحوظة ذات علائق مختلفة منها العطف بأداة من أدوات النسق ، فهو نمط من أنماط الجمع بين المعانى وصورها فى لسان العربية ونسق من انساق تعانقها فكان ضرورة عند أهل العلم أن يتحقق تناسب بالغ بين ما يجمع بينهما بناسق ، وهذا التناسب اللازب بين المنسوقين يقوم على دعامتين اختلف أهل العلم فى منزلة كل منهما فذهبت جماعة الى أنهما سواء لا قيام المعطف بين عناصر النص فى أفقها التركيبى الأول بدونهما وذهبت أخرى الى انهما ليسا سواء ، بل احداهما ضرورة لا قيام للعطف بين الجمل بدونها والاخرى ليست كذلك .

التى اتفقوا على انها فريضة هى أن يكون بين ما يراد تعاطفه جامع (وذلك أنا لا نقول : « زيد قائم وعمرو قاعد » حتى يكون « عمرو » بسبب من « زيد » وحتى يكونا كالنظرين والشريكين ، وبحيث اذا عرف السامع حال الاول عناه أن يعرف حال الثانى ، يدلك على ذلك أنك ان جئت فعطفت على الاول شيئا ليس منه بسبب ، ولا هو مما يذكر بذكره ويتصل حديثه بحديثه لم يستقم ...) (١) .

والجامع فى الفكر البيانى فى هذا الباب ذو خصوبة بالغة ، فما حصروه فى الجامع الواقعى او العقلى الساكن فى لغة الدهماء بل هو ممتد الى ما هو أبعد من ذلك ، الى الوهم والى الخيال الذى أسباب تقارن الاشياء فيه مختلفة وممتدة (فكم من صور تتعانق فى الخيال وهى فى آخر ليست تتراوى ، وكم صور لا تكاد تلوح فى الخيال وهى فى غيره نار على علم) (٢) وذلك قبول محمود قائله ومن حقه تلقيه وتوظيفه فى

---

(١) دلائل الاعجاز ص١٥٦ (ط/المراغى) الثانية .

(٢) مفتاح العلوم للسكاكى ص ١٥٢ (وانظر معه شروح التلخيص ٣/٧٦-١٠٩) .

فقه بناء النص ابداعا ووحيا على نحو يتناغى مع ما فيه من حق ومع ما في بناء لغة النص من مناهج تختلف باختلاف كل نص ، فان البناء الداخلى لاى نص ابداعى ليخلق معنى كليا عاما تستحيل فيه العناصر أفرادا وتركيبا الى خلايا حية متنامية تمنح النص خاصة النمو الداخلى الذى لا يتناهى ولا تستفرع كنوزه • وهذا يقتضى فقه ملامح المعنى الكلى للنص قبل الانشغال بفقه وجوه الترابط بين الجزيئات السابحة فى ذلك النص فانت لن تفهم الجامع الجزئى بين متعاطفين فى السياق الأفقى لوحدات النص الا اذا سبق فقهك الجامع الكلى لمكونات النص ، فالادراك الكلى هو الهادى الى تحرير الجامع الجزئى بين المتعاطفين ان مفردين وان جملتين •

والدعامة التى هى فريضة عند طائفة ونافلة عند أخرى انما هى التناسب بين الجملتين المتعاطفتين فى نوع المعنى خبرا وانشاء ، وقد بينت ما بينهما من قبل •

البيانيون وجمهور النحاة والمفسرين على أن هذه كالاولى فريضة لا تختلف عنها فى صحة العطف بين الجملتين(٣) •

هاتان دعامتا التناسب المؤذن للتعاطف والتناسق بأداة النسق بين الجمل عند البيانيين وجمهور النحاة والمفسرين • وثم ضروب من التناسب يجعلها بعض النحاة فريضة تخلق صحة التعاطف ، منها التناسب بين المتعاطفتين اسمية او فعلية فوق التناسب فى الخبرية

---

(٣) ينظر : دلائل الاعجاز ص١٦١ ، مفتاح العلوم ص١٢٢ ، المصباح لابن الناظم ص٦٤ ، التبيان للطيبى ص١٤٠ـ١٤١ ، شروح التلخيص ٢٥/٣ـ٢٦، المغنى لابن هشام ٩٩/٢، الهمع للسيوطى ١٤٠/٢، الكشاف ومعه حاشية السيد ٢٥٣/١ ، أنوار التنزيل للبيضاوى ومعها العناية للشهاب ٥٧/٢ •

والانشائية فعندهم (لا يحمل الفعل على الاسم ولا الاسم على الفعل ولا المفرد على الجملة ولا الجملة على المفرد حتى يكون احدهما فى تأويل الاخر) (٤) بل انه (لا يجوز عطف فعل على فعل الا بشرط اتفاقهما فى الزمان ، والاحسن أن يتفقا مع ذلك فى الصيغة) (٥) وفى هذا دلالة على ما يوغل فيه بعض أهل العلم من منع العطف بين الانشاء والخبر ولكن جمهور البيانيين يرى فى ذلك ما يقيم حسنا من بعد صحة وليس هو بالخالق تلك الصحة(٦) ٠

** ومجمل القول أن البلاغين وجمهور النحاة والمفسرين يقيمون لمنع العطف بين الانشاء والخبر ضوابط عدة أوجزها فيما يأتي :

(١) أن لا يكون تم جامع بينهما ٠ وهذا عام فى جميع الجمل سواء أتفقت انشاء وخبرا او اختلفت فحيث انتفى الجامع لم يستقم البته العطف بين الجملتين أيا كان نوعهما ٠

وهذا الضابط ان صح القول به فى لغة العامة ومطارحات الدهماء ومقاولاتهم فانه لن يكون البتة فى أى نص أبداعى ، لان أساس البناء اللغوى للنصوص قائم على ذلك التعانق الكلى بين عناصره مضافا اليه أنماط خاصة من التأخى بين تلك العناصر حين تتجاور ٠ ومجرد تحقيق الجامع الكلى او الجزئى غير كاف فى التواصل العطفى فقد يكون ثم ما يقتضى اصطفاء نمط آخر من أنماط التواصل ، فحيث كان نص ابداعى كانت وشيجة القربى بين مكوناته تجاورت منازلها فى النص أو تباعدت ثم تسبح معها وشيجة التجاور فيما تقاربت منازله ٠

---

(٤) المقرب لابن عصفور ص٢٥١-٢٥٢ (ت/الجوارى والجبورى - بغداد) ٠

٥ - السابق / ٢٥٨ ، شرح المفصل لابن يعيش ٨/ ٩٠ ٠

(٦) المفتاح /١٣١ ، المصباح /٦٨ ، التبيان للطيب /١٤٣ ، شروح التلخيص ٣/٩٠١-١١٦ ٠

(٢) ألا يكون للاولى المعطوف عليها محل اعرابى أو قيد دلالى يراد اشراك المعطوف له فيه فان كان للأول محل اعرابى أو قيد قصد الاشراك فيه فلا ضير من ذلك العطف ، والذكر الحكيم فيه الكثير من ذلك (وقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل) (آل عمران / ١٧٣) .

(٣) ألا يكون العطف لغير الاشراك فى القصد الاعلامى فان كان لغاية أخرى غير التشريك فى القصد جاز كأن تكون له وظيفة دلالية أخرى كالصرف عن وقوع ما بعد التعاطف فى حيز دلالة ما قبلها فيكون العاطف حينذاك قائما بغير ما هو معهود فى مثله فى مساقات أخرى والحق أن هذه الاداة حينئذ ليست من أدوات العطف وان تكن فى صورتها .

(٤) ألا يكون الناسق فاء السببية ، فان العطف بين الخبر والانشاء بفاء السببية شائع « انا أعطيناك الكوثر فصل لربك وانحر » .

(٥) أن يكون الاختلاف فى مضمون الجملتين ومعنيهما فان اتفقا معنى فلا ضير من العطف وأن اختلفت صورة المعنى اللفظية فيعطف انشاء فى معنى الخبر على خبر صرف ويعطف خبر فى معنى الانشاء على انشاء صرف ، فالتلاقى فى مآل المعنى محقق صحة العطف عند المانعين ، غير انا نجد الامام عبدالقاهر فى بيان وجه عدم العطف بين قوله تعالى (أنهم هم السفهاء) وقوله (أنؤمن كما آمن السفهاء) يذهب الى أنه لو عطف عليه لكان يكون قد دخل فى الحكاية ولصار حديثا منهم عن أنفسهم بأنهم هم السفهاء من بعد أن زعموا أنهم انما تركوا أن يؤمنوا لئلا يكونوا من السفهاء ثم يضيف الى ذلك وجها آخر فيقول (على أن فى هذا أمرا آخر وهو أن قوله (أنؤمن) استفهام ولا يعطف الخبر على الاستفهام) (٧) وهذا من الامام غير دقيق لان الاستفهام هنا انكارى وهو من المعانى الخبرية فكأنه قيل لن نؤمن كما آمن السفهاء ولا أحسب أن الامام يذهب الى أن

---

(٧) دلائل الاعجاز /١٦١ (ط الثانية - ت المراغى) .

الاتفاق في مآل المعنى مع اختلاف صورته مانع من العطف بين صورة الخبر وصورة الانشاء ، فأن الامام كان ذا نظر ثاقب في بيان وجه ترك العطف بين جملتين مختلفتين خبرا وانشاء في قول اليزيدى :

ملكته حبلى ولكنه ألقاه من زهد على غاربى
وقال انى في الهوى كاذب انتقم الله من الكاذب

فجعل عدم العطف بين (انتقم الله من الكاذب) وقوله (قال انى فى الهوى كاذب) الاستئناف على معنى جعل الكلام جوابا في التقدير ، فاستأنف قوله (انتقم الله من الكاذب) لأنه جعل نفسه كأنه يجيب سائلا قال له : فما تقول فيما اتهمك به من انك كاذب فقال : انتقم الله من الكاذب(٨) وكان بملك الامام أن يوجه ترك العطف بينهما بأن احداهما انشاء والاخرى خبر ومآل المعنى فى كلتيهما مختلف لا يؤول أحدهما بالآخر وأن يوجهه أيضا بأن عطفه قد يوهم أنه من مقول المتحدث عنه أى قال قولين : أن الشاعر في الهوى كاذب ودعا عليه ولكنه لم يذهب الى ذلك ولم يضف أحدهما الى الوجه الأول كما فعل مع الآية الآنف ذكرها وكما فعل (السكاكى) فى البيتين وجعل عدم العطف لاختلافهما خبرا وطلبا معرضا عما بينهما من استئناف وكأنه لا يرى الاستئناف الا فيما اتفقا(٩) بينما الامام يراه فيما اتفقا خبر وانشاء وفيما اختلفا .

وفى ضوء هذا الضابط يمكن الذهاب الى العطف بين الانشاء والاخبار التشريعية فى بيان الوحى من أن الخبر التشريعى مآل المعنى فيه الى نهى أو أمر وليس القصد الى الاعلام بوقوع مضمون الصورة الكلامية لذلك الخبر فمآل معناه انشاء فلا يمتنع عطفه على انشاء صرف أو عطف انشاء عليه ، كذلك الاستفهام القرآنى غير المحكى عن مقالة أحد من الخلق مآل

---

(٨) السابق /١٦٤ .
(٩) المفتاح /١٣٠ .

معناه الى غير حقيقة الاستفهام وحينئذ لن يمتنع العطف بينه وبين ماتناسب مع مآل المعنى فيه .

هذه الضوابط التى أقامها المانعون لتحقيق عدم العطف بين الانشاء والخبر تكاد تجعل العطف بينهما الذى هو محل منازعة قليلا ولا سيما في بيان الوحى .

* والمانعون العطف بين الانشاء والخبر يسلكون مسالك عدة فى تأويل ما كان منه ، والعالم منهم قد يجمع بين بعض تلك المسالك فى تأويل صورة ما وقد يذهب فى مسلك يذهب الى غيره فيما تشابه مع الصورة الأخرى ونحن نعرض بعضا من مذاهب أهل العلم فى تأويل ذلك ، ناظرين فيه نظرا تفسيريا وتقويميا .

(١) قال تعالى : « وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين * فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين * وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ... » (البقرة /٢٣ ـ ٢٥) .

فى صدر سورة (البقرة) المعلنة أن القرآن هو الكتاب الحق الكامل الذى لا ريب فيه وأنه هدى للمتقين جاء البيان القاهر بأنه من عند الله ـ عز وعلا ـ وحده وتحدى المرتابين فى ذلك وقرر أنهم لن يستطيعوا الاتيان بسورة من مثله ، وان دعوا شهداءهم من دون الله تعالى ، وأمرهم باتقاء النار التى أعدت للكافرين وأمر رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وكان أساس ايمانهم أن القرآن من عند الله تعالى ،

فقوله « بشر الذين آمنوا » جملة انشائية سبقتها جملة خبرية « أعدت للكافرين » وأهل العلم يسلكون في بيان ما نسقت عليه جملة « بشر » مسالك عدة :

* أنها معطوفة على « اتقوا » وهما متشابهان انشاء لفظا ومعنى ، وذلك كما تقول يا بنى تميم احذروا عقوبة ما جنيتم وبشر يا فلان بنى أسد باحسانى اليهم(١٠) .

وقد نقد هذا الوجه بأن فيه المخاطبين مختلفان ولا يصح ذلك الا اذا صرح بالنداء كما فى المثالين والا فالنحاة يمنعون ، وبأن هذا يجعل الأمر بالبشارة مشاركا الأمر باتقاء النار فى التقييد بشرط العجز أى فان لم تفعلوا فاتقوا النار وبشر الذين آمنوا ، والبشارة ليست مقيدة بذلك مما يجعل العطف موهما غير المراد(١١) .

ويذهب آخرون الى أنه لا مانع فان تبشير من آمن بأن الكتاب من عند الله تعالى كانذار من كذب مترتب على عدم المعارضة التى تقطع بأن الكتاب معجز وأن النبى - صلى الله عليه وسلم - صادق ، وكذلك مآل المعنى فى الأمرين واحد ، أى فاتقوا النار واتقوا ما يعيظكم من حسن حال أعدائكم فأقيم (بشر) مقامه تنبها على أنه مقصود فى نفسه أيضا لا لمجرد غيظهم فقط ، وهذا القدر من الرباط المعنوى كاف فى عطفه على ذلك الجزاء وان لم يكن كافيا فى جعله جزاء ابتداء .

ويمكن أن يقال : ان جزاء الشرط « فان لم تفعلوا » انما هو « آمنوا » ولكن أقيم « اتقوا » مقامه ايماء الى أن هذا الاتقاء انما هو مسبب عن الايمان بصدق هذا الكتاب وطاعة أمره ونهيه ، فالمعنى ان لم تأتوا

---

(١٠) الكشاف ١/٢٥٤ .

(١١) السيد على الكشاف ١/٢٥٤ .

بسورة فآمنوا وبشر يا محمد الذين آمنوا منهم بالجنة أى فليوجد منهم الايمان ومنك البشرى(١٢) ٠

* أن (بشر) معطوف على مقدر اختلف فى موقعه وتقديره :

(أ) أنه معطوف على « قل » من قبل النـداء « يأيها الناس اعبدوا ربكم » لكون ارادة القول بواسطة انصباب الكلام معناه غير عزيزة فى القـرآن(١٣) ٠

وفات (السكاكى) أن الكثرة غير كافية ، فالشرط تناسـق ذلك مـع السياق والغرض ، ولو أنه استبصر هذا النداء موقعا وتركيبا لأدرك أن تقدير (قل) من قبله ينفر عنه السياق والمقام :

هـذا النداء هو أول نداء فى القـرآن الكريم ، وهو نداء عام جميع المكلفين ، فان كلمة « النـاس » عامة تشـمل كل ذى حركة اضـطرابية اختيارية ، والمـأمور به انما هو عبادة الرب توحيدا الهيـا وربوبيـا ، فهى دعوة الى الاسلام الكامل عقيدة وشريعة على ما هو آت فى ذلك الكتاب الذى لا ريب فيه ، وهو نداء تولاه الحق عز وعلا بنفسه فلم يقل للنبى صلى الله عليه وسلم « قل يأيها الناس » لأن هذه الدعوة انما هى دعوة الى دين شامـل خـاتم مكلف به جميع المتلقين فى كل زمان ومكان حتى يرث الله - عز وعلا - الأرض ومن عليها ، فكان فى جعل النداء من الله جل جلاله ايماء الى أنها دعوة واصلة كل مكان وباقية ما بقيت السموات والأرض فهو نداء يحطم حواجز الزمان والمكان ، ففرق بين أن ينادى الله عز وعلا وأن يأمر نبيه بأن ينادى فرق ما بين الحق الخـالق وبين النبى البشر المخلوق ، فزعم أن « بشر » معطوف على « قل » فيه تجاوز عن وهج الدلالة المنبعث مما عليه النظم ، ولـو شاء فى هذا المساق أن يأمر النبى

---

(١٢) السابق والعناية للشهاب ٢/٥٩ ٠

(١٣) المفتاح /١٢٥ ٠

صلى الله عليه وسلم بأن ينادى الناس ويأمرهم بعبادة ربهم لفعل كما فعل فى مساق آخر « قل يأيها الناس انى رسول الله اليكم جميعا » (الأعراف ١٥٨) فتقدير « قل » شاحب ٠

(ب) أن « بشر » معطوف على « فانذر » المقدر من بعد قوله « أعدت للكافرين » أى فأنذرهم وبشر الذين آمنوا ، وقد استحسنه « السيد الشريف » (١٤) وحسنه من أن قوله « أعدت للكافرين » مفعم بالانذار ، فانبثاق الأمر بالانذار وتفرعه بعيد عن التكلف والعطف على مفهوم منطوق غير غريب ، ولكن الذى هو أعلى أن فهمه منه مغن عن تقديره ، فعطفه على ما تضمنه كعطفه عليه وان اختلفا صورة وظهورا لا يختلفان تناسقا وتعانقا ، فخير منه عطفه على (اعدت للكافرين) ملاحظة لما تضمنه من معنى الانذار ٠

*أنه لما كان من سنة البيان القرآنى « أن يذكر الترغيب مع الترهيب ويشفع البشارة بالانذار ارادة التنشيط لاكتساب ما يزلف والتبثيط عن اقتراف ما يتلف ، فلما ذكر الكفار وأعمالهم وأوعدهم بالعقاب قفاه ببشارة عباده الذين جمعوا بين التصديق والأعمال الصالحة ٠٠٠ »(١٥) فالمعتمد فى العطف هنا انما « هو جملة وصف ثواب المؤمنين ، فهى معطوفة على جملة وصف عقاب الكافرين ، كما تقول: زيد يعاقب بالقيد والارهاق ، وبشر عمرا بالعفو والاطلاق »(١٥) فالمنظور اليه انما هو التناسب بين الغرضين دون آحاد الجمل الواقعة فيهما ، وهو ما يسمى بعطف القصة على القصة ، فهو عطف معنى الكلام ومفهومه ومضمونه الكلى المنبثق من جزئيات متعددة مختلفة الصور خبرا وانشاء على مضمون كلى مثله ، فهو أقرب الى ما يسمى بالتشبيه التمثيلى المركب،

---

(١٤) الايضاح « شروح التلخيص » ٣/٧٦ ، وحاشية السيد على الكشاف ١/٢٥٤ ٠

(١٥) الكشاف وحاشية السيد ١/٢٥٢ ـ ٢٥٤ ٠

من أن النظر الى ما بين طرفيه من تعانق وليس الى علائق جزئيات الطرفين ولذا فان فى تسق جزئيات كل طرف اختلافا عن نسق جزئيات الآخر ، هذا الاختلاف الترتيبى بين جزئيات أطراف التشبيه التمثيلى المركب يماثله اختلاف نوعى فى جزئيات أطراف عطف القصة ، فلا ينظر الى ما بين تلك الجزئيات من تناسب أو اختلاف خبرا وانشاء ، فالشرط فى عطف القصة أن يكون كل طرف يشكل معنى كليا أى عرضا عاما وليس عرضا جزئيا مندرجا فى غرض أعم منه ، فالأعلى عندى قصر القول بعطف القصة على عطف الأغراض الكلية العامة فى النص ابداعا ووحيا ، وليس كل عطف بين انشاء وخبر يصلح للقول بأنه من عطف القصة اذا ما كان كل منهما عنصرا فى غرض كلى من النص ومن الملاحظ أن القول بعطف القصة قد كثر استخدامه فى عطف الأغراض الجزئية وهذا ما لا يعجبنى ٠

الأوفق فى هذه الآية أن قوله « اعدت للكافرين » دال بالفحوى على انذار الكافرين وبالمخالفة على تبشير الذين آمنوا ، والنظم فى غير حاجة الى تقدير أمر بالانذار أو غيره ليعطف عليه الأمر بالتبشير ، فعطف « بشر » على « أعدت » ملحوظ فيه ما فى « أعدت » من انذار وتبشير ، وما هذا من قبيل تأويل أحد المتعاطفين بمعنى الآخر بل ذلك لحظ ما فى كل منهما من تآخ دلالى ٠

* * *

(٢) قال تعالى : « يايها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة ان الله مع الصابرين * ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات بل احياء ولكن لا تشعرون * ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين » (البقرة /١٥٣ - ١٥٥) ٠

فى معرض تربية الذين آمنوا وأعدادهم لحمل الرسالة والصمود أمام المحن التى تجابه الدعاة الى الله - عز وعلا - وما يلقيه الحق عز وجل أمامهم من صنوف الابتلاء السابر للأغوار المطهر من الأردان جاء أمرهم

بالاستعانة بالصبر والصلاة واعتقاد أن الذين استشهدوا فى سبيل الله أحياء والايقان بأن الله عز وعلا مبتليهم وفاتنهم وسابر أغوارهم بصنوف من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات مع تحريض والهاب على الصبر أمام تلك المحن ٠

دعامتان تقوم عليهما شخصية الدعاة الى الله تعالى منهجا وسلوكا : المصابرة البالغة أمام المحن واستمداد العون من الله تعالى وحده ، منيبين اليه ، لأنه غايتهم ٠

فى هذا الغرض الجزئى جاءت جمل متعاطفة مختلفة خبرا وانشاء والمانعون من تعاطف الجمل المختلفة خبرا وانشاء يعمدون الى التأويل : فقوله « ولنبلونكم » انما هى مقسم عليه فاللام دالة على مقسم به ، وذلك قسم الهى والخطاب فيه للذين آمنوا والبيانيون على أن القسم انشاء غير طلبى ، ولكن القسم الالهى غير القسم من الخلق فى وظيفته الدلالية ، فهو الى المعنى الخبرى المؤكد أقرب وعطفه على « ولا تقولوا » وهو جملة نهى ناظر الى ما فى « ولا تقولوا » من معنى الاخبار ، فالنهى عن تسمية من قتل فى سبيل الله تعالى ميتا دال على عظيم منزلته وعلى الاعلام بأن ذلك جدير بأن يكون غاية كل مؤمن فعطف « لنبلونكم » على « لا تقولوا » من عطف السبيل على الغاية ، وفى قوله « لنبلونكم » أيضا معنى انشائى هو طلب الصبر منهم على البلاء ، لأن الاخبار بذلك مآله طلب الصبر على ذلك البلاء ، ومن هذا الوجه يمكن أن يقال ان « لنبلونكم » معطوف على « استعينوا » عطف خاص على عام أو هو كما يذهب اليه « الألوسى » عطف مضمون على مضمون من أن مضمون « استعينوا » طلب الصبر ، ومضمون « لنبلونكم » بيان مواطنه(١٦) ٠

---

(١٦) روح المعاني ٢/٢٢ ٠

ويذهب « البقاعى » الى أن « لنبلونكم » معطوف على مقدر يفهم مما قبله ، يقول : « ولما كان شأن الطين الذى منه البشر وما تولد منه أنه لا يخلص عن الشوائب الا من بعد معاناة شديدة ٠٠٠ قال تعالى - معلما لهم بالتربية بما تحصل به التصفية بما تؤدى اليه مناصبة الكفار ومقارعة أهل دار البوار - « ولنبلونكم » عطفا على ما أرشد اليه التقدير من نحو : فلنأمرنكم بمقارعة كل من أمرناكم من قبل بمجاملته وليتمالأن عليكم أهل الأرض ولنبلونكم » (١٧) ٠

أما « الحرالى » فيرى أن قوله « لنبلونكم » يمثل نوعا آخر من أنواع الصبر ، اذ الصبر عنده نوعان : صبر عن الكسل وعلى العمل ، كان له قوله تعالى « استعينوا بالصبر والصلاة ان الله مع الصابرين » وصبر على مصائب الدنيا انتظمه قوله تعالى « لنبلونكم بشىء من الخوف ٠٠٠ » فمن لم يحمل الصبر الأول على الجهاد أخذ بأمور هى بلايا فى باطنه ، فكأن « الحرالى » يذهب الى أن عطف « لنبلونكم » على « استعينوا » من عطف القسم على قسيمه لأنهما يمثلان نوعى الصبر كما ذكرهما ونقلهما عنه « البقاعى »(١٧) ٠

أما عطف « بشر الصابرين » فهو عندهم اما على « لنبلونكم » عطف مضمون على مضمون أى الابتلاء حاصل لكم ، وكذا البشارة لكن لمن صبر(١٨) واما على فعل أمر مقدر سواء كان قبل النداء « يأيها الذين آمنوا استعينوا » فيكون المقدر « قل »(١٩) أم كان قبل قوله « بشر » يرشد اليه السياق أى « فأنذر من لم يصبر ، ولكنه طوى اشارة الى اجلال الذين آمنوا عن أن يكون فيهم من لم يصبر » (٢٠) ٠

---

(١٧) نظم الدرر ٢/٢٥٢ - ٢٥٣ (ط / الهند - حيدر آباد) ٠
(١٨) العناية للشهاب ٢/٢٥٩ ، وروح المعانى للألوسى ٢/٢٣
(١٩) المفتاح للسكاكى /١٢٥ ٠
(٢٠) نظم الدرر ٢/ ٢٥ ، والعناية للشهاب ٢/٢٥٩ ، وروح المعانى ٢/٢٣ ٠

ويمكن أن نقول ان « بشر » معطوف على « لنبلونكم » لما فيه من معنى الطلب كما سبق ذكره ، ولكنه عدل عن أن يقال فاصبروا وأبشروا الى ما عليه النظم ليكون الخبر المؤكد فى « لنبلونكم » مفجرا الرغبة والعزم على الصبر ومقابلة البلاء به ، ووجه الأمر لرسوله صلى الله عليه وسلم أن يقوم بنعمة التبشير لهم ان استجابوا لما فجره فيهم قوله تعالى « لنبلونكم » فيكون المفجر فيهم عزيمة وصبرا انما هو خبر من الله عز وعلا والبشرى عليه كانت على لسان رسوله البشير صلى الله عليه وسلم ، فهم من الله تعالى يستمدون وبرسوله عليه الصلاة والسلام يستبشرون .

وقد كان الأمر بالصبر فى الأولى « استعينوا بالصبر والصلاة » عقباه « ان الله مع الصابرين » وفى الأخرى « ولنبلونكم » عقباه « بشر الصابرين » لما بين الصبرين من بعد المنزلة : فى الأولى صبر عن الكسل وعلى العمل فكان للصابر الصحبة وفى الثانية صبر على مصائب الدنيا فكان له البشرى من عقوبة الآخرة « وشتان بين من كان الله معه وبين من قيل لنبيه بشره بصبره على بلاء التخلف »(٢١) .

* * *

(٣) قال تعالى : « واذان من الله ورسوله الى الناس يوم الحج الأكبر ان الله برئ من المشركين ورسوله فان تبتم فهو خير لكم وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزى الله وبشر الذين كفروا بعذاب اليم » (التوبة/٣)

كثير ممن قرأت له من المفسرين لم يقف عند وجه عطف « بشر » فى هذه الآية(٢٢) وكأني بهم يذهبون الى أنها كمثل غيرها السابق عليها ،

---

(٢١) نظم الدرر ٢/٢٥٦ ـ ٢٥٧ .

(٢٢) ينظر : الكشاف ٢/١٧٤ ، المحرر الوجيز لابن عطية ٨/١٢٥ ـ ١٣٢ ، التبيان للعكبرى ٢/١١ ، البحر المحيط ٥/٨ ، أنوار التنزيل والعناية ٤/٢٩٩ ، ارشاد العقل لأبى السعود ٣/٤٢ ، روح المعانى ١٠/٤٨ .

والطاهر بن عاشور - وهو ممن لا يمنع العطف بين الانشاء والخبر - قد ذهب هنا الى أن « بشر » معطوف على « أذان » لما تضمنته جملة «أذان» من معنى الأمر ، فكأنه قيل : فآذنوا الناس ببراءة الله ورسوله من المشركين وبان من تاب منهم فقد نجا ومن أعرض فقد أوشك على العذاب ثم قال وبشر المعرضين المشركين بعذاب أليم(٢٣) .

وعلى الرغم من أن « البقاعى » جعل فى « أذان من الله أمرا بالاعلام بالبراءة فى المجمع الأعظم ليقطع الحجج معطوفا على الأمر البادى فى صدر السورة « براءة من الله ورسوله » فانه لم يذهب الى عطف « بشر » على « أذان » بل جعله معطوفا على مقدر ، يقول :

(ولما واجههم بالتهديد أعرض عنهم وجه الخطاب تحقيرا لهم مخاطبا لأعلى خلقه مبشرا له فى أسلوب التهكم بهم فقال - عاطفا على ما تقديره فبشر الغادرين بالخذلان أو فبشر التائبين بنعيم مقيم وبشر الذين كفروا اى أوقعوا هذا الوصف بعذاب أليم) (٢٤)

والاقرب أن يكون قوله (بشر) معطوفا على « اعلموا » لما فى « اعلموا أنكم غير معجزى الله » من التهديد البالغ والوعيد العظيم وذلك هو ما فى قوله « بشر الذين كفروا بعذاب أليم » فالتهديد والوعيد والتهكم فى « بشر » بالغ لا يخفى ، فمآل المعنى : وان توليتم فأعلموا أنكم غير معجزى الله وأبشروا بعذاب أليم ، لكنه عدل الى ما عليه النظم لما فيه من دلالة على أن ما يبشرون به من عذاب أليم سيكون منه فى الدنيا ما يقع بهم على يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفى هذا بشرى لرسول الله صلى الله عليه وسلم أيضا فالآية تجمع بين ما يلقاهم عند التولى من الله عز وعلا فى الدنيا والآخرة ، وما يقع عليهم من رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وفى هذا تناغ بين قوله « وأعلموا أنكم غير معجزى الله وان الله

---

(٢٣) التحرير والتنوير ١١٦/١٠ .
(٢٤) نظم الدرر ٣٧٩/٨ .

مخزى الكافرين » وقوله « فاعلموا أنكم غير معجزى الله وبشر الذين كفروا بعذاب أليم » .

* * *

(٤) قال تعالى : « ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم بان لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا فى التوراة والانجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم * التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين » (التوبة/١١١-١١٢) .

جمهور من قرأت من المفسرين لا يكاد يقف عند عطف « بشر »(٢٥) وكأنى بهم يذهبون الى أن « بشر » ناظر الى « استبشروا » من أن قوله « التائبون » وما بعده وصف مقطوع لقوله « المؤمنين » وقد أشار « أبو حيان » الى شيء من ذلك(٢٦) و « البقاعى » جعل « بشر » معطوفا على مقدر أى « فانذر من تخلى منها بكل ما يسوءه بعد سجنه فى دار الشفاء ، فانه كافر ، وبشرهم أى هؤلاء الموصوفين ، هكذا كان أصل الاضمار ، ولكنه أظهر ختاما بما به بدأ وتعليقا بالوصف وتعميما فقال « وبشر المؤمنين » (٢٧) .

وأعلى مما ذهب اليه « أبو حيان » وما ذهب اليه « البقاعى » أن يقال ان قوله « بشر » معطوف على قوله « ان الله اشترى » ذلك أن المقصود من ذلك الخبر المعطوف عليه العمل به ، فأشبه الأمر والمقصود من الأمر

---

(٢٥) ينظر : الكشاف ٢/٢١٦ ، المحرر ٨/٢٨٨ ، التبيان للعكبرى ٢/٢٣ ، وأنوار التنزيل والعناية ٤/٣٧٠ ، وارشاد العقل ٣/١٠٧ وروح المعانى ١٠/٣٢ ، والفتوحات الالهية ٢/٣٢٢ .

(٢٦) البحر المحيط ٥/١٠٤ .

(٢٧) نظم الدرر ٩/٢٨-٢٩ .

بتبشيرهم ابلاغهم ، فكلتا الجملتين مراد منه معنيان : خبري وانشائي(٢٨) فالمراد بالمؤمنين في « وبشر المؤمنين » هم المعهودون من قوله « ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم » ففي ذلك الخبر ثناء عليهم متضمن الأمر لغيرهم أن يكونوا مثلهم فكأنه أمر بقوله « ان الله اشترى » الامة أن تكون كذلك وأمر الرسول صلى الله عليه وسلم بتبشير من اتصف بصافاتهم وفعل أفعالهم سواء من كان منه جهاد بنفسه وماله ومن لم يكن منه ذلك لمانع مشروع ، ففي المعطوف عليه بشرى وفي المعطوف كذلك ٠ والأولى من الله عز وعلا لمن جاهد وتخلق والأخرى لمن تخلق ولم يكتب له الجهاد وفي هذا « أعظم ترغيب في الجهاد وأعلى حث على خوض غمرات الجلاد ، وفي ابتداء الآيتين بالوصف المشعر بالرسوخ في الايمان الذي هو الوصف المتمم للبشر وختمها بمثله اشارة الى أن هذه مائدة لا يجلس عليها طفيلي وأن من عدا الراسخين في درجة الاعمال لا كلام معهم ولا التفاف بوجه اليهم » (٢٧)



(٥) قال تعالى : « والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير فاذكروا اسم الله عليها صواف فاذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون * لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ما هداكم وبشر المحسنين » (الحج /٣٦-٣٧) ٠

---

(٢٨) الجمع بين الانشاء والخبر في جملة واحدة بأن يكون في احدهما على جهة الحقيقة والاخر على جهة الكناية غير ممنوع « ينظر حاشية الحضري على شرح الملوي للسمرقندية ص٧٢ - طبعة الخيرية بمصر سنة ١٣١٩هـ فكان أولى بالاجازة عطف أحدهما على الآخر في جملتين ٠

جمهور من قرأت من المفسرين لا يكاد يقف عند عطف « بشر المحسنين »(٢٩) غير أن « البقاعى » يذهب الى أنه معطوف على مقدر ـ وذلك الغالب عليه فى مثل هذا ـ يقول : « ولما كان الدين لا يقوم الا بالنذارة والبشارة وكان السياق ـ لأجل ما تقدم من شعائر الحج ومعالم الحج والتج ـ بالبشارة أليق ، ذكرها مشيرا الى النذارة بواو العطف ليؤذن ان التقدير : فأنذر أيها الداعى المسئين « وبشر المحسنين » أى الذين أوجدوا الاحسان لأفعالهم صورة ومعنى » (٣٠) .

ويمكن القول أن « بشر » معطوف على « أطعموا » أى فاذا وجبت جنوبها فكلوا وأطعموا وأبشروا ، فالبشرى لمن أحسن فى القيام بما كاف ، ولا بعد فى الفصل بين المعطوف عليه لأن الفاصل ليس غريبا بل من تمام المعطوف عليه ، وعدل عن « أبشروا » الى ما عليه النظم التفاتا الى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ « بشر المحسنين » تشريفا له صلى الله عليه وسلم وتكريما للمحسنين وتعليما للامة أن النبى صلى الله عليه وسلم انما هو طريق احسانهم ، فمن الله على يده عليه الصلاة والسلام تكون النعمى والبشرى ، وليس لأحد من هذه الامة أن يستغنى عنه فى أى أمر من أمور حياته الموصل الى آخرته ، فكان الالتفات اليه ابلاغا فى البشرى :

* * *

(٦) قال تعالى : « يايها النبى انا ارسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا » (الأحزاب /٤٥ـ٤٧)

---

(٢٩) انظر : الكشاف ١٥/٣ ، المحرر ٢٠٣/١١ ، التبيان للعكبرى ١٤٤/٢ ، أنوار التنزيل والعناية ٢٩٩/٦ ، البحر المحيط ٣٧٠/٦ ، ارشاد العقول ١٠٨/٦ ، روح المعانى ١٥٨/١٧ ، الفتوحات الالهية ١٦٨/٣ ، التحرير والتنوير ٢٧٠/١٧ .

(٣٠) نظم الدرر ٥٤/١٣ .

فى عطف « بشر » وجوه ذكرها بعض أهل العلم : منها أنه معطوف على مقدر مناسب اقتضاه المقام ويستدعيه النظام ذلك أنه « لما تقدمت هذه الأوصاف الحسنى وكان تطبيق ثمراتها عليها فى الذروة من العلو ، وكان الشاهد هو البينة ، فكان كأنه قيل : فأقم الأدلة النيرة وأدع وأنذر كل من خالف أمرك وكان المقام لخطاب المقبلين ، طوى هذا المقدر لأنه للمعرضين ، ودل عليه بقوله عاطفا عليه « وبشر المؤمنين » (٣١) .

ومنها أن يعطف على « انا ارسلناك » عطف قصة على قصة وهو عندى ضعيف ، لما سبق بيانه عند آية البقرة (٢٣-٢٥) .

ومنها أن يؤول الخبر بمعنى الأمر كأنه قيل ادعهم شاهدا ومبشرا ونذيرا وبشر المؤمنين منهم(٣٢) .

وأقرب هذه الوجوه أن أخبار الله تعالى فيها معنى الأمر بما يحب والنهى عما يكره ، وأخباره النبى - صلى الله عليه وسلم - بأن أرسله شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا وسراجا منيرا انما انقصد به الى لوازم منطوقة ، ومن تلك اللوازم التكليف بتلك الصفات الشهادة والتبشير والدعوة الى الله عز وعلا وابانة السبيل الى الله تعالى وتبشير من صار الايمان صفة من صفاته ، والبشرى فى « بشر » انما هى لقوم مخصوصين وبفضل خاص ، بخلاف ما فى قوله « مبشرا » فهى بشرى عامة لكل من أطاع على اختلاف درجات طاعته ، فكأنه قال : ومبشرا كل من أطاع بجزاء طاعته وبشر من ترقى فى الطاعة الى مقام الايمان الكامل بأن لهم من الله فضلا كبيرا زائدا على ما هو لغيرهم من هو دونهم فى مقامات القرب ، فالبشرى الأولى مطلقة ، والاخرى مخصوصة بالمؤمنين

---

(٣١) السابق ٣٧٣/١٥ ، وأنظر البحر المحيط ٢٣٨/٧ ، وأنوار التنزيل ١٧٧/٧ ، الفتوحات الالهية ٤٤٣/٣ .

(٣٢) ينظر العناية للشهاب ١٧٧/٧ ، روح المعانى ٤٦/٣٢ ، من أسرار التعبير القرآنى للدكتور محمد أبو موسى ص٢٥٤ .

وهى بشرى بالزيادة « فضلا كبيرا » وهذا ليس من قبيل تأويل الخبر بالامر كالذى فى « والوالدات يرضعن » ونحوهـا بل هـو لمح لما فـى الخبر من افادة معنى التكليف بما أخبر به ، فان دلالة الخبر هنـا عـلى معنى التكليف لا يصلح جعله من باب الدلالة المجازية كالتى يذهب اليها البلاغيون فى اخراج الطلب فى صورة الخبر ، بل هو من باب الافـادة العرضية الاستتباعية ، وليس من باب الدلالة اللفظيـة الموسومة بالحقيقة أو المجاز عند جمهور أهم العلم .



(٧) قال تعالى : « يأيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم * تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وانفسكم ذلكم خير لكـم ان كنتم تعلمون * يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ومساكن طيبة فى جنات عدن ذلك الفوز العظيم * واخرى تحبونهـا نصر من الله وفتـح قريب وبشر المؤمنين » (الصف /١٠-١٣) .

كذلك كان عطف « بشر » ذا وجوه عند أهل العلم : منها أنه معطوف على مقدر يقتضيه السياق ، قدره جماعة بقول من قبل النداء أى قل يأيها الذين آمنوا وبشر المؤمنين(٣٣) وقدره « البقاعى » بما هو نقيض « بشر » ذلك أنه « لمـا كان ما تقـدم من المعاتبة انذارا لمـن خالف فعله قـوله من الذين آمنوا وكان المقام قد أخذ حظه من الانذار والتوبيخ طوى ما تقديره : فأنذر من لـم يكـن راسخـا فى الدين من المنافقين ومن خالف فعله قوله من المؤمنين عطف عليه دلالة عليه ليكـون أوقع فى النفس لمن يشـير اليه طيه من الاستعطاف قـوله « وبشر المؤمنين » أى الذين صار الايمان

---

(٣٣) المفتاح /١٢٥ ، أنوار التنزيل والعناية ١٩٤/٨ ، ارشاد العقل السليم ٢٤٦/٩ .

لهم وصفا راسخا كحاطب بن أبى بلتعه - رضى الله عنه - بأن الله يفتح لك البلاد شرقا وغربا وأول ذلك « مكة المكرمة » ولا يحوجهم الى أن يدرؤا عن عشائرهم وأموالهم ولا أن يكون شيء من أفعالهم يخالف شيئا من أقوالهم » (٣٤) فهو يلمح الى أن النداء هناك أعم من البشرى هنا : النداء للذين آمنوا ، وهو يشمل كل من دخل فى الايمان قولا وفعلا ومن دخله قولا ، وفى هؤلاء من لا يقوم بما كلف ، فيخالف قوله فعله ، فيكون فى تلك العقبى التى ذكرت فى صدر السورة فله الانذار ، وفى هؤلاء من يقوم بما كلف فيرقى فى مدرجة الايمان ، فتكون له البشرى ، « البقاعى » يلمح بذكر سيدنا « حاطب » الى أن مخالفة القول الفعل لا تسقط العبد من مقام الوصف بالايمان اذا ما كانت المخالفة صورية غير صادرة عن تعمد منافقة ، وما فعله سيدنا « حاطب » ظاهرة نفع قريش وما الى ذلك قصد « حاطب » البته ، وهو العليم بان أمره لا بد مكشوف بالوحى ، لكنها الخدعة لقريش بما لن يتحقق به اضرار رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والمسلمين .

وقدر آخرون المعطوف عليه من بعد « وفتح قريب » أى فأبشر يا محمد وبشر المؤمنين(٣٥) .

ومنها أن « بشر » معطوف على ما فى قوله «تؤمنون » من معنى الأمر « كأنه قيل آمنوا وجاهدوا يثبكم وينصركم وبشر يا رسول الله المؤمنين بذلك »(٣٦) ولم يرتض هذا جماعة « لأن المخاطبين فى « تؤمنون » هم المؤمنون ، وفى « بشر » هو النبى - صلى الله عليه وسلم - ثم قوله « تؤمنون » بيان لما قبله على سبيل الاستئناف ، فكيف يصح عطف « بشر المؤمنين » عليه(٣٥) .

---

(٣٤) نظم الدرر ٣٩/٢٠ .
(٣٥) الايضاح « شروح التلخيص » ٧٦/٣ .
(٣٦) الكشاف ١٠١/٤ .

وهـذا الاعتراض مدفوع بأن اختلاف المخاطبين غـير ممنوع كما زعم فضلا عـن أن النداء فى « بشر » ملحوظ ، فكأنه قيل يأيهـا الذين آمنوا آمنوا ويا محمد بشر ، فهو متعين بالمقام تعينه بالنداء ، يضاف الى هذا انه ليس المخاطب بقوله « تؤمنون » المؤمنين خاصة بل النبى صـلى الله عليه وسلم والأمة كلها ، فهو صـلى الله عليه وسلم مأمور بالايمـــان برسالته ، كما أنه يمكن أن يقـال ان التجارة فى « هل أدلكـم عـلى تجارة » نوعـان عـامة للذين آمنوا وهى الايمان ، وخاصة للرسول ـ صـلى الله عليه وسلم ـ وهى البشارة(٣٧) ٠

فى بعض هـذا الـرد تهافت واضح : فى دعوى ان الخطاب يشـمل النبى صلى الله عليه وسلم فى « تؤمنون » بعـد وضـعف لا يخفـى ، ولو أدرك أن المنادى عليهم « الذين آمنوا » والمبشرين « المؤمنون » لمـا ذهب الى هذا ، وكذلك فى دعوى أن التجارة نوعان تهافت ظاهر ٠

ويمكن أن نقول ان قـوله « بشر » معطوف على « فتح قريب » فكأنه قيـل : فتح قريب وبشرى للمؤمنين ، وهـذه فـوق التى هى للـذين آمنوا ، فكل ما مضى انما هو عـام للذين آمنوا المحققين ما طلب منهـم من ايمان بالله ورسوله ، وجهاد فى سبيل الله بالأموال والأنفس ، فان لهم مغفرة ودخول جنات تجرى من تحتها الأنهار ومساكن طيبة فى جنـات عـدن ونصر من الله وفتـح قريب ، ولـكن لمـن تحقق فارتقى فى ذروة الايمان فاستحال الايمان وصفا لـه متحققا فيه فان لـه بشرى أخرى فوق ذلك بشرى آتية له من ربه عـلى لسان رسوله صـلى الله عليه وسلم ، وفى حذف المبشر به دلالة على عظيم تلك البشرى ، ولذا كان العدول الى « بشر المؤمنين » التفـاتا اليه صـلى الله عليـه وسلم ابلاغـا فـى البشرى ، وفى الاعلام بأنه صلى الله عليه وسلم هو سبيلهم الى كل نعمى من رب العالمين ٠



---

(٣٧) الأطول ٢/٦٩

(٨) قال تعالى : » ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون انما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار * مهطعين مقنعي رءوسهم لا يرتد اليهم طرفهم وأفئدتهم هواء * وانذر الناس يوم يأتيهم العذاب ... الآية » (ابراهيم /٤٢-٤٤) .

جمهور المفسرين الذين قرأتهم لا يكاد يقف عند عطف « أنذر »(٣٨) وظاهر البيان أنه معطوف على « لا تحسبن » وظاهر الخطاب فيه انه لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وغير خفى أن المعنى على هذا الظاهر من صيغة النهى ليس هو حقيقة معنى النهى اذ أن ذلك الحسبان لا يكون منه صلى الله عليه وسلم لمناقضته النبوة ، فهو معصوم منه ، فالمعنى فيه الى الوعيد البالغ والتهديد العظيم للظالمين وتسلية للمظلومين ووعد بالنصفة ،فهو نهى الى معنى الخبر ، فعطف « أنذر » عليه لا يتناسق معه عند جمهور أهل العلم من أن « أنذر » أمر لفظا ومعنى ، و « لا تحسبن » نهى لفظا خبر معنى .

وان كان المخاطب هو السامع « الذى يمكن منه حسبان مثل هذا « لجهله بصفات الله (٣٩) فصيغة النهى على معناه الحقيقى ، وفيه أيضا تهديد وتسلية واعلام بنصفه ، فلا اشكال فى عطف « انذر » عليه الا من اختلاف المخاطبين فى كل عند من يمنع ذلك الا مع النداء فى كل والذى هو أقرب أن فى كل من النهى فى « لا تحسبن » والأمر فى « أنذر » وجوها ثلاثة : ظاهر المعنى وصورته ومآله ، فى النهى « لا تحسبن » الصورة انشاء وكذا ظاهر المعنى على أن المخاطب غير

---

(٣٨) أنظر الكشاف ٢/٣٨٢-٣٨٣ ، المحرر ١٠/٩٨ ، التبيان للعكبرى ٢/٧٠ البحر المحيط ٥/٤٣٦ ، أنوار التنزيل والعناية ٥/٢٧٦ ، ارشاد العقل السليم ٥/٥٦ ، روح المعانى ١٣/٢٤٧-٢٤٨ ، الفتوحات ٢/٥٣٢ .

(٣٩) البحر المحيط ٥/٤٣٥ .

النبى صلى الله عليه وسلم ، وخبر على أن الخطاب له صلى الله عليه وسلم ، ومال المعنى خبر فى الحالين لأنه تهديد وتسلية أو وعد ووعيد . وفى الأمر « أنذر » الصورة وظاهر المعنى انشاء ومآل المعنى خبر : تهديد للكافرين ووعد بالبشرى لغيرهم ، فبين الجملتين اتفاق فى مآل المعنى ، وذلك مسلك من مسالك التواصل .



(٩) قال تعالى : « واذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فاخذتكم الصاعقة وانتم تنظرون * ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون * وظللنا عليكم الغمام وانزلنا عليكم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم وما ظلمونا ولكن كانوا انفسهم يظلمون » (البقرة /٥٥-٥٧) .

قوله « ما ظلمونا » ظاهره أنه معطوف على ما قبله « كلوا » فسلك جمهور أهل العلم الى أنه معطوف على مقدر اقتضاه السياق تقديره ، فظلموا بأن كفروا هذه النعمة وما ظلمونا (٤٠) ولم يرتض « أبو حيان » ذلك وذهب الى أنه لا يتعين تقدير محذوف « لأنه قد صدر منهم ارتكاب قبائح من اتخاذ العجل الها ومن سؤال رؤية الله على سبيل التعنت وغير ذلك مما لم يقص هنا ، فجاء قوله تعالى « وما ظلمونا » جملة منفية يدل على أن ما وقع منهم من تلك القبائح لم يصل الينا بذلك نقص ولا ضرر بل وبال ذلك راجع الى أنفسهم ومختص بهم لا يصل الينا منه شيء » (٤١) كأنه يشير الى أنه من قبيل العطف بين الأشياء وما يترتب عليها ، فأفاعيلهم تلك عقباها اختصاص ظلمهم بأنفسهم .

---

(٤٠) الكشاف ٢٨٣/١ ، المحرر ٢٢٩/١ ، أنوار والعناية ١٦٤/٢-١٦٥ ، ارشاد العقل ١٠٤/١ ، روح المعاني ٢٦٤/١ .

(٤١) البحر المحيط ٢١٥/١ .

ويمكن أن يقال أن « الواو » فى « وما ظلمونا » حالية أى والحال فى هذا أنهم لم يظلموا الا أنفسهم ٠

وغير خفى أن قوله « كلوا » وان كان أمرا الا أنه الى معنى الامتنان ، وهو معنى خبرى وبرغم من ذلك فلا يستقيم القول بأن « ما ظلمونا » معطوف عليه ، بل هو من عطف موقف على آخر مقابل له يبرز هول المفارقة بين كريم فضل الله - عز وعلا - عليهم ولئيم صنيعهم ٠

* * *

(١٠) قال تعالى : « وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وامنا واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى وعهدنا الى ابراهيم واسماعيل أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود » (البقرة /١٢٥) ٠

فى عطف « اتخذوا » وجوه من التأويل عند أهل العلم بناء على نوع الجملة : خبرية أو انشائية ، وفيها قراءتان :

قرأ « نافع » و « ابن عامر » « واتخذوا » بفتح « الخاء » على أنه فعل ماض ، وقرأ بقية العشرة بكسر « الخاء » على أنه فعل أمر(٤٢) ٠

على قراءة « نافع » و « ابن عامر » فيه ثلاثة وجوه : « الأول » أنه معطوف على مقدر منبثق من السياق والتقدير فثابوا واتخذوا(٤٣) ٠

« والثانى » انه معطوف على « جعلنا » أى واتخذ الناس من مقام ابراهيم الذى وسم لاهتمامه به واسكان ذريته عنده قبله يصلون اليها(٤٤) ٠

---

(٤٢) المبسوط فى القراءات العشر لابن مهران /١٢١ ٠

(٤٣) التبيان للعكبرى ٦٢/١ ، الأنوار والعناية للبيضاوى والشهاب ٢٣٧/٢ ٠

(٤٤) الكشاف ٣١٠/١ ، المحرر ٣٥٣/١ ٠

« والثالث » أنه معطوف على « واذ جعلنا » كأنه قيل « واذ اتخذوا » فيكون الكلام جملتين متعاطفتين(٤٥) ٠

وعلى قراءة بقية العشرة على أنه فعل أمر يكون عطفه على وجوه :

« أولا » معطوف على فعل الأمر « اذكروا » في « يا بنى اسرائيل اذكروا نعمتى »(٤٦) ٠

« ثانيا » معطوف على الأمر الذى تضمنه قوله « مثابة » أي ثوبوا واتخذوا(٤٦) ٠

« ثالثا » معمول لمقدر معطوف على « جعلنا » أو حال من فاعله ، أى واذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا وقلنا اتخذوا أو قائلين لهم اتخذوا(٤٧)

« رابعا » قوله « واتخــذوا » جملة مســتأنفة غير معطوفة بل هي اعتراضية(٤٧) ٠

وزعم « البيضاوى » انها اعتراضية معطوفة على مضمر تقديره : ثوبوا اليه واتخذوا على أن الخطاب لأمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ٠

واعترض على « البيضاوى » بأنه لا حاجة الى تقدير معطوف عليه لأن « الواو » غير عاطفة بل اعتراضية ٠ ودفع هذا الاعتراض بأنه قدر المعطوف عليه ليناسب ما قبله ويلتئم معه ، فالاعتراضية تقوى ما اعترضت فيه وتؤكده ، وبالمعطوف عليه المقدر يظهر ذلك التقوى والتوكيد ، وأيضا اتخاذ المقام مصــلى انمــا يكون بعد الرجوع الذى هو المعطوف عليه المقدر(٤٨) ٠

---

(٤٥) المحرر الوجيز ١/٣٥٣ ٠

(٤٦) السابق ١/٣٥٢ ٠

(٤٧) ارشاد العقل السليم ١/١٥٧ ٠

(٤٨) أنوار التنزيل والعناية ٢/٢٣٦ ٠

وعطف « عهدنا » على « اتخذوا » على قراءة « نافع » و « ابن عامر » لا يخفى ، وعلى قراءة البقية لا يخفى أيضا على جعل « اتخذوا » معمولا لمقدر أى قلنا اتخذوا وعهدنا ، وعلى بقية الوجوه يكون « عهدنا » معطوفا على « جعلنا » أى اذ جعلنا وعهدنا .

مما مضى يكن القول انه من بعد أن بين للنبى - صلى الله عليه وسلم - أنه أرسله بالحق بشيرا ونذيرا وأن اليهود والنصارى لن يرضوا الا باتباعه ملتهم ، وبين له أنه أمر اليهود والنصارى من بنى اسرائيل بأن يذكروا نعمة الله عليهم وأنه كذلك يأمره بأن يتذكر نعمة الله عز وعلا عليه التى هى ابتلاء سيدنا ابراهيم - عليه الصلاة والسلام - بكلمات ، وجعل البيت مثابة للناس ، والعهد الى سيدنا ابراهيم واسماعيل عليهما الصلاة والسلام بتطهير البيت ودعوة سيدنا ابراهيم عليه الصلاة والسلام لمكة المكرمة ورفعه قواعد البيت الحرام . كل هذه نعم هى فى حقيقتها ومآلها نعم على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وأمته تفوق النعم التى أنعمها على بنى اسرائيل . هكذا سياق المعنى ، فاذا جئنا الى قوله تعالى «اتخذوا» على أنه أمر يسبقه قوله » واذ جعلنا » وهو أمر أيضا لأن « اذ » معمول لفعل أمر « اذكر » أو « اذكروا » كما هو عليه جمهور أهل العلم أى واذكروا اذ ابتلى ابراهيم ربه واذكروا اذ جعلنا ... واتخذوا .

هذا ما يمكن أن نقوله ، غير أنى ذاهب الى أن الأعلى منه ان قوله « جعلنا البيت مثابة ... » فيه معنى الأمر بجعله مثابة وأمنا ، فكأنه قيل فاتخذوا مثابة وأمنا واتخذوا مقام ابراهيم مصلى .

ومن الوجوه العالية أن « اتخذوا » اعتراض مؤكد معنى الجعل مبرز خصوصية مقام ابراهيم فى هذا البيت كله الذى جعله مثابة وأمنا ابرازا يتناغى مع اختصاص هذه النعم التى كان سيدنا ابراهيم عليه الصلاة والسلام فيها سببا بالذكر ، وهو الذى زعم اليهود والنصارى أنه منهم فاشار الى أن أولى الناس به الذين اتبعوه ، وهذه الأمة ، وما كان من نعم جاءت على يديه فان عقباها ومستقرها كان عند هذه الأمة وليس عند بنى اسرائيل .

(١١) قال تعالى : « يأيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن الا أن يأتين بفاحشة مبينة وعاشروهن بالمعروف فان كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا » (النساء/١٩) .

فى علاقة « لا تعضلوهن » وجوه من التأويل منها : أن « لا » ناهية والفعل مجزوم بها وتكون « الواو » استئنافية(٤٩) أو عاطفة لها على « لا يحل » بتأويلها بمعنى النهى من أن هذا التركيب صورة من صور النهى فكأنه قيل يأيها الذين آمنوا لا ترثوا النساء كرها ولاتعضلوهن(٥٠)

ومنها ان « لا » نافية زائدة لتأكيد النفى والفعل « تعضلوهن » منصوب بالعطف على « ترثوا » أى لا يحل لكم ميراث النساء كرها ولا عضلهن ، ويقويه قراءة « ابن مسعود » « ولا أن تعضلوهن » فهى مفسرة قراءةالجمهور(٤٩) أو أن « لا » نافية غير زائدة ، والفعل المنفى بها معطوف على الفعل « ترثوا » وهذا مردود بأنه عطف منفى على مثبت وهما منصوبان ، والناصب يقدر بعد الناسق لا بعد أداة النفى ، وتقديره هنا بعد العاطف مفسد للمعنى : لا يحل لكم أن ترثوا وان لا تعضلوا وهذا بين الفساد(٥١) .

والذى هو الأعلى أن « تعضلوهن » مجزوم بلا الناهية معطوف على معنى « لا يحل » وقد بسطت القول فى هذه الآية فى غير هذا البحث مما يغنى عن البيان هنا(٥٢) .



---

(٤٩) التبيان للعكبرى ١٧٢/١ ، المحرر لابن عطية ٦١/٤ .
(٥٠) العناية للشهاب ١١٧/٣ ، البحر ٢٠٤/٣ ، نظم الدرر ٢٢٥/٥
(٥١) روح المعانى ٢٤٢/٤ ، وظاهر ما هو فى العناية ١١٨/٣ ان الاعتراض على جعل « لا » زائدة ، والتحقيق انه على جعلها غير زائدة ولعل فى هذه النسخة سقطا والنظر فى حقيقة مقاله الشهاب يؤكد انه اعتراض على جعل « لا » نافية غير زائدة .
(٥٢) راجع دلالة الألفاظ عند الأصوليين ص ١٩٩ ـ ٢٠٥ .

(١٢) قال تعالى : « ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وانه لفسق وان الشياطين ليوحون الى أوليائهم ليجادلوكم وان اطعتموهم انكم لمشركون » (الأنعام /١٢١) ٠

فى بيان علاقة « انه لفسق » بما قبله وجوه : منها أن « الواو » استئنافية ومنها أنها حالية أى لا تأكلوه حال فسقه ، وجعلها حاليه فيه نظر عند بعض أهل العلم من أن الحال الواقعة فى الأمر أو النهى مبينة على التقدير لا التحقيق والذى يتناسب مع المؤكدات فى « انه لفسق » أن يكون المؤكد بها محققا غير أن ذلك النظر غير مسلم اذا فسرنا الفسق بأنه ما أهل لغير الله ، فان ذلك مؤكد « كأنه قيل لا تأكلوا منه اذا كان هذا النوع من الفسق الذى الحكم به متحقق والمشركون ينكرونه(٥٣) واذا نظرنا الى مرجع الضمير فى « انه » ألفينا احتمال أن يكون « ما » فى « مما لم يذكر » أى وان الذى لم يذكر اسم الله عليه لفسق ، وأن يكون الأكل المدلول عليه بلا تأكلوا أى وان الأكل مما لم يذكر اسم الله عليه لفسق كقوله « اعدلوا هو أقرب للتقوى » (المائدة) ٠

والذى نذهب اليه أن قوله « انه لفسق » علة النهى فى « لا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه » بيان ذلك : جاءت الآية فى سورة « الأنعام » المستفتحة بالحمد لله فكانت اول أربع استفتحت به من بعد « الفاتحة » كل واحدة هى رأس غرض كلى فى البيان القرآنى الحكيم ، وهى التى نزلت جملة واحدة يشيعها سبعون ألف ملك ، والتى تبين هدى الكتاب فى العقيدة الاساسية : واحدية الله عز وعلا وعبودية العالمين والعلاقة بين هذين الركنين لهذه العقيدة ٠ فى هذه السورة ومن قبل نهاية مساقها تأتى مرحلة من مراحل بناء النص تبين حقا من حقوق الالهية الحقة ، وواجبا من واجبات العالمين ازاء هذه الالهية : تبين أن الحاكمية التشريعية تحليلا وتحريما فى كل شئون الحياة ، ومنها ما يطعم الناس انما هو لله وحده

---

(٥٣) العناية للشهاب ٤/١٢٠ ٠

« أفغير الله ابتغى حكما وهو الذى أنزل اليكم الكتاب مفصلا » « وان تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله ان يتبعون الا الظن وان هم الا يخرصون ❋ ان ربك هو أعلم بمن يضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين » فهو الحقيق باختصاص اعلان ما يحل وما يحرم ، فيعلن أن ما يؤكل من أنعام وما شابهها نوعان : ما مات وما ذبح ، وأعلن أن مايذبح - فعلا للانسان - لا يؤكل الا اذا ذكر اسم الله عليه عند ذبحه ، وأن الآخر لا يؤكل ذكر اسم الله عليه أو لم يذكر ، لأنه فسق ، فالسياق لبيان نوعين كليين لكل حكم : « الأول » كان بفعل قاصد من الانسان فاشترط اقترانه بذكر اسم الله تعالى « والآخر » كان بفعل الله وهذا لا يحل أكله الا فى حال الاضطرار الشرعى ، فقوله « فكلوا مما ذكر اسم الله عليه » قائم ببيان حكم أكل الذبيحة واشتراط ذكر اسم الله عليه ويفهم من هذا أن ذكر اسم الله عليه ضرورة لجواز حل ما ذبح وأن يكون هذا الذكر ايمانا واحتسابا وان ترك ذكره نسيانا أو غفلة لا يقدح فى حله ، فليس على الناسى جريرة ، وقوله « ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه ظاهره عام فى كل ما لم يذكر اسم الله عليه سواء كان مذبوحا أم ميتا ، ولكن علائق الايات ونسق بناء المعنى يبين أن الاية مسوقة سوقا أصليا لبيان حكم ما مات وجاء البيان عنه بقوله « ما لم يذكر اسم الله عليه ، دون قوله « مات » ايماء الى أن ذلك شأن الميتة لا يذكر اسم الله عليها وان ذلك من خصائص الذبح فالفطرة تهدى الى اقتران الذبح باسم الله تعالى اعلانا بأن ذلك الفعل الذى هو فى ظاهرة تعذيب للمذبوح انما هو باذن الله الرحمن الرحيم وماجعل ما وقع عليه حلالا الا باذنه جل جلاله فهو وحده الذى يملك ذلك ، وهذا آية التوحيد ، وأن المرء لا يستمد ما يجوز له وما لا يجوز الا منه تعالى ، فكل تشريع وضعى لما يحل أكله وما يحرم انما هو افتراء ومنازعة لله عز وعلا فيما اختص به وهو ضرب من الشرك الماحق ، فقوله « لا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه » انما هو نهى عن الميتة على الرغم من أن موته فعل من أفعال الله عز وعلا والذبح فعل من أفعالنا ولكن الله الذى هو صاحب الحق تحليلا وتحريما هو الذى قضى بأن ما أماته لا يحل وما نذبحه باسمه انما هو الذي يحل اعلاما لنا أن أفعالنا حين تكون باسم

الله تعالى تبث في الأشياء نور توحيد الله عز وعلا ، والعبودية له بالخضوع بشريعته ، وتلك حقيقة الغاية التي خلق الله عز وعلا لها الثقلين ، وفقه هذا يدحض زخرف الجدل الذى ينعق به الكافرون : أتأكلون ما ذبحتم ولا تأكلون ما ذبح الله ؟ فقوله « لا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه » انما سيق سوقا اصليا للنهى عن اكل الميتة وليس عن اكل ما ذبح ولم يذكر اسم الله عليه ، فذلك منهى عنه بطريق آخر اذ هو معلوم من قوله تعالى « فكلوا مما ذكر اسم الله عليه ان كنتم بآياته مؤمنين » فالأمر بأكل ما ذكر اسم الله عليه عند ذبحه يلزمه النهى عن أكل ما لم يذكر اسم الله عليه عند ذبحه عمدا ونكرا اما ان كان نسيانا أو عمدا تأويليا فجمهور أهل العلم على حله • وهذا الذى ذهبت اليه من أن قوله « لا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه » مسوق سوقا أصليا للنهى عن أكل الميتة لم أذهب اليه من أنه المتناغي مع سبب النزول، بل من أن ذلك في المقام الأول هو المتناغي مع مساق المعنى كما سيق بيانه، فقوله « انه لفسق » علة كاشفة عن وجه النهى عن أكله وبيان أن النهى عنه لا لأنه من فعل الله عز وعلا ، كما يوهمه جدل الكافرين ولكن لأنه فسق أى خارج عما شرع الله حله وهو وحده العليم بما هو حقيق بأن يكون حلالا وبما هو جدير بأن يكون حراما ، فينهى عنه ، ولذلك يخرج عن تلك الحرمة حال الضرورة الشرعيـة ، فالضمير فى « انه » يستقيم ارجاعه الى المصدر المفهوم من قوله « تأكلوا » أى وان أكل الميتة لفسق أى خارج عما حللت ، ويستقيم ارجاعه الى « ما » أى وان ما مات لفسق أى خارج عما هو جدير بأن يكون حلالا لكم لا يدخل فيه الا فى حال الضرورة الشرعية ، فالجملة فى الحالين تعليل للنهى ، وكان مقتضى الظاهر أن يكون غير معطوف بالواو شأن الاستئناف البيانى فيقال « انه فسق » أو « فانه فسق » ولكن هذا الظاهر الغالب ليس باللازب الذى لا محيد عنه ، فان فى بيان الوحى ولسان العربية عدولا عن ذلك الى مثل ما عليه قوله « وانه لفسق »(٥٤) وفى هذا العدول

---

(٥٤) ينظر : دلالات التراكيب للدكتور محمد أبو موسى ص ٣٢٢ - ٣٢٧، وانظر الكشاف ٢/١٠٤ فى قوله تعالى «ويذرك وآلهتك» الاعراف=

أبلغ في تعليل النهي من أن فيه لفتا باهرا للبصائر الى تلك العلة التي هي آية من آيات الخضوع لحاكمية الله عز وعلا تحليلا وتحريما ، وهو ما يكاد يسعى بعض من الناس الى الخروج عليه ومنازعة الله عز وعلا فيه فيعطون لأنفسهم حق التحليل والتحريم لا فيما هو من شئون دنياهم بل فيما هو من شئون حياتهم الموصلة الى الآخرة ، ففي العدول بالعطف لفت باهر الى وجه النهي وعلته .

* * *

(١٣) قال تعالى : « قال أراغب أنت عن آلهتي يا ابراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرني مليا » (مريم /٤٦) .

جمهور أهل العلم على أن قوله « أهجرني » معطوف على محذوف مقدر يدل عليه قوله « لأرجمنك » أي فاحذرني واهجرني لأن لأرجمنك تهديد وتقريع(٥٥) .

وذهب « الطاهر » الى أنه معطوف على جملة « لئن لم تنته لأرجمنك » ذلك أنه هدده بعقوبة آجلة ان لم يقلع عن كفره بآلهتهم وبعقوبة عاجلة وهي طرده من معاشرته وقطع مكالمته(٥٦) وما ذكره « الطاهر » أعلى من الذهاب الى تقدير محذوف على أنه لو قيل انه معطوف على الاستفهام الانكاري التوبيخي « اراغب » لما كان مما هو ممنوع لأن المعطوف عليه له محل فهو مقول « قال » والاستفهام الانكاري والأمر في « اهجرني » مقولان لأبي ابراهيم .

* * *

=١٢٧) فانه يذهب الى أنه معطوف على « يفسدوا » أو هو جواب للاستفهام بالواو كما يجاب بالفاء نحو قول الحطيئة :

ألم أك جاركم ويكون بيني ... وبينكم المودة والاخاء

(٥٥) الكشاف ٥١١/٢ ، المحرر ٣٤/١١ ، أنوار التنزيل والعناية ١٦٣/٦ ، نظم الدرر ٢٠٦/١٢ ، ارشاد العقل السليم ٢٦٨/٥ .

(٥٦) التحرير والتنوير ١٢٠/١٦ .

(١٤) قال تعالى : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون * واقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واطيعوا الرسول لعلكم ترحمون * لا تحسبن الذين كفروا معجزين في الأرض ومأواهم النار ولبئس المصير » (النور /٥٥ ـ ٥٧).

في عطف « أقيموا » و « مأواهم » وجوه من النظر منها أن قوله « أقيموا » معطوف على « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول » فهو من مقول القول المأمور به ، ولا يشكل الفصل بينهما ، لأن الفاصل وعد على المأمور به أولا ومنها أنه معطوف على « يعبدونني » وفيه تخصيص من بعد تعميم والتفت الى صيغة الأمر في « أقيموا » لمزيد الاعتناء باقامة الصلاة ... وقوله « يعبدونني » حال أو استئناف بياني ، وهو مما يمنع الجمهور عطف الانشاء عليه ومنها أنه معطوف على مقدر يستدعيه النظم فانه يقدر « فلا تكفروا وأقيموا » نظرا الى قوله « ومن كفر » أو يقدر « فآمنوا وأقيموا » نظرا الى قوله « وعد الله الذين آمنوا »(٥٧) .

والأعلى أنه معطوف على « ومن كفر » نظرا الى أن الاخبار بالمذمة عن فعل وأصحابه انما هو صورة من صور النهي عن ذلك الفعل فمآل المعنى وليبدلنهم من بعد خوفهم امنا يعبدونني لا يشركون به شيئا فلا تكفروا وأقيموا ... أو هو معطوف على « وعد الله الذين آمنوا » لما فيه من معنى الأمر بالايمان وعمل الصالحات من انه ثناء عليهم فهو أمر بفعلهم فكأنه قبل فآمنوا وأعملوا الصالحات وأقيموا ، فهو من عطف خاص على عام .

---

(٥٧) الكشاف ٧٤/٣ ، أنوار التنزيل والعناية ٣٩٧/٦ ـ ٣٩٨ ، ارشاد العقل السليم ١٩٢/٦ ، روح المعاني ٢٠٧/١٨ ـ ٢٠٩ .

وقوله « مأواهم » فى عطفه وجوه منها إنه معطوف على « لا تحسبن » فهو خبر فيه وعيد بالغ وتهديد عظيم للذين كفروا ـ كما سبق بيانه فى قوله تعالى : « ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون » وهذا لاخفاء فى مناسبة « مأواهم النار » له ٠

ومنها أن « مأواهم » معطوف على مقدر أى لا تحسبن الذين كفروا معجزين فى الأرض فانهم مقهورون فى الدنيا بالاستئصال والذل ومأواهم النار فى الآخرة ٠

ومنها أن « الواو » حالية أى لا ينبغى الحسبان لمن مأواهم النار كأنه قيل أنى للكافر هذا الحسبان وقد أعد له النار ، والعدول الى « ومأواهم النار » للمبالغة فى التحقيق وان ذلك معلوم لهم لا ريب(٥٧) ٠

وأعلى هذه الوجوه « الأول » الناظر الى ما بين مآل المعنى فى الجملتين من تناسب فالآية بيان لمصير الذين كفروا فى الدارين : قهر فى الأرض واذلال ، وتعذيب فى الآخرة يقابل ما هو وعد للذين آمنوا فى الدنيا والآخرة من عز الدنيا « ليستخلفنهم فى الأرض ٠٠٠ الخ » وسعادة الاخرة « لعلكم ترحمون » ٠

(١٥) قال تعالى : « وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا * وقد أضلوا كثيرا ولا تزد الظالمين الا ضلالا » (نوح /٢٣ ـ ٢٤) ٠

فى عطف « لا تزد » وجوه منها أنها معطوفة على « رب انهم عصونى » أى قال رب انهم عصونى ولا تزد ، أى قال هذين القولين وهما فى محل نصب فحكى قوليه معطوفا احدهما على صاحبه(٥٨) فتكون « الواو » فى « ولا تزد » من الحكاية لا من المحكى ، فهو جمع فى حكاية ما قال لا جمع

---

(٥٨) الكشاف ١٦٤/٤ ٠

فى القول نفسه ، وقوله « رب انهم عصونى » شكاية فيه معنى طلب الانتصار فهو متناغ مع « لا تزد الظالمين الا ضلالا » .

ومنها أن « لا تزد » معطوف على مقدر مستنبط من السياق يتناسب مع قوله «لا تزد» قدره «البقاعى» بقوله «فلا تزد الظالمين الا خسارا»(٥٩) وهو فى هذا يلحظ قوله « رب انهم عصوني واتبعوا من لم يزده ماله وولده الا خسارا » فهو دعاء جامع بين الخسران والضلال شامل أحوال الدنيا والآخرة ، وقدره غيره بقوله « فأخذ لهم » على أن « الواو » فى « ولا تزد » من كلام سيدنا نوح عليه السلام المحكى عنه وليس من الحكاية(٦٠) .

ومنها أنه معمول لمقدر معطوف على « قال رب إنهم عصونى » او على العامل المقدر فى « قد أضلوا » أى قال قد أضلوا وقال لا تزد ، وقوله « قال » العامل فى « قد أضلوا » معطوف على «قال رب انهم عصونى»(٦١) فتتوالى الأقوال : قال رب انهم عصونى ، وقال قد أضلوا كثيرا وهما من باب الشكاية طلبا للانتصار ، وقال لا تزد وهذا دعاء ، فالتناسب بين الأقوال المحكية واضح والواو فى كل من الحكاية لا من المحكى .

* * *

« تأويل الهمزة الداخلة على عاطف » :

مما كان فيه منازعة ما كانت فيه همزة الاستفهام داخلة على حرف عطف وقد جاء ذلك فى ثلاث صور :

« أفتطمعون أن يؤمنوا لكم » (البقرة /٧٥) ، « أو كلما عاهدوا عهدا نبذه فريق منهم » (البقرة /١٠٠) « أثم اذا ما وقع آمنتم به » (يونس /٥١) وهى صور تختلف حضورا فى القرآن الكريم ، فدخول

---

(٥٩) نظم الدرر ٤٥١/٢٠ .
(٦٠) العناية للشهاب ٢٥٣/٨ .
(٦١) الفتوحات الالهية للجمل ٤١٤/٤ .

الهمزة على « ثم » لم يرد الا فى آية « يونس » التى ذكرناها ٠ ودخولها على « الواو » جاء فى ستة وخمسين موضعا كانت « الواو » فى بعضها حالية عند بعض أهل العلم(٦٢) ودخولها على « الفاء » جاء فى ستة وعشرين ومائة موضع وهى فى هذه المواضيع غالبا غير متخصصة للعطف بل تفيد معه معنى السببية فى عطف الجمل ٠ فكانت هذه الصورة «دخول الهمزة على الفاء » خارجة فى الكثير الغالب عما فيه منازعة عند المانعين العطف بين الانشاء والخبر ، لأن العطف بينهما بالفاء المفيدة معنى التسبب غير ممنوع بل الممنوع ما كانت فيه الفاء العاطفة جملا للتشريك بغير تسبيب وهو قليل فمناط المنازعة فيما دخلت فيه الهمزة على « ثم » أو على « الواو » العاطفة ٠ وأهل العلم مختلفون فى بيان أيهما فى حيز الآخر : أيكون الاستفهام فى حيز العاطف فتكون الاستفهامية معطوفة على أخرى قد تشاكلها وقد تباينها خبرا وانشاء فى مآل المعنى أم يكون العطف فى حيز الاستفهام فيكون المستفهم عنه أمرين أحدهما مذكور والآخر مقدر دل عليه العاطف وتكون الجملة الاستفهامية ابتدائية استئنافية :

* مذهب « سيبويه » والجمهور أن الأصل « تقديم حرف العطف على الهمزة كما تقدم على غيرها من أدوات الاستفهام نحو : « وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله (آل عمران /١٠١) ٠٠٠ فكان يقال فى « أقتطمعون » وفى « أفكلما » وفى « أثم اذا ما وقع » فأتطمعون وفأكلما ، وثم أئذا ما وقع ، لأن أداة الاستفهام جزء من جملة الاستفهام وهى معطوفة على ما قبلها من الجمل والعاطف لا يتقدم عليه جزء مما عطف ، ولكن خصت بتقديمها على العاطف تنبيها على أنها أصل أدوات

---

(٦٢) من ذلك قوله تعالى « أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون » (البقرة /١٧٠) وآية المائدة « ١٠٤ » وقوله تعالى « أو لو كنا كارهين » الاعراف / ٨٨ ، وقوله « قال أو لو جئتك بشىء مبين » (الشعراء /٣٠) راجع الكشاف ٣٢٨/١ ، ٦٤٩ ، ٩٦/٢ ، ١١٠/٣ ٠

الاستفهام ، لأن الاستفهام له صدر الكلام ، وقد خولف هذا الأصل في غير الهمزة فأرادوا التنبيه عليه ، فكانت الهمزة بذلك أولى لأصالتها في الاستفهام(٦٣) وعلى هذا تكون جملة الاستفهام معطوفة على سابقة عليها ، وقد تكون مخالفة لها في مآل المعنى خبرا وانشاء مما يجعل جمهور أهل العلم المانعين عطف الانشاء على الخبر يسلكون في تأويل ذلك مسالك عدة تكشف عن التناسب بينهما عندهم أما الذين لا يمنعون فليسوا بحاجة الى تأويل .

وخالف مذهب الجمهور جماعة منهم أبو العلاء المعري كما في شرحه قول أبي تمام (أو ما رأت بردى من نسج الصبى) و « الزمخشري » والزملكاني و «البيضاوي» و «البقاعي» و «أبو السعود» وغيرهم فذهبوا الى وجوه أخرى وأكثرهم في تنويع تلك الوجوه « جار الله الزمخشري » من ذلك أن الهمزة قارة في موضعها وليس في النظم تقديم بل حذف وتقدير ، فهي داخلة على معطوف عليه مقدر وجملة الاستفهام ابتدائية ، والعاطف وما بعده داخل في حيز الاستفهام ، فلا يحتاج الى تأويل العطف سواء سبقت جملة الاستفهام بجملة تناسبها في مآل المعنى خبرا وانشاء ام لا ، ولا فرق في هذا عنده بين أن يكون العاطف « واوا » أو « فاء » أو « ثم »

يقول في قوله تعالى : « أو لم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم ان في ذلك لآيات أفلا يسمعون » (السجدة ٢٦/) : « الواو في « أو لم يهد » للعطف على معطوف عليه منوي من

---

(٦٣) شواهد التوضيح والتصحيح لابن مالك /١٠-١٣ « ت / فؤاد عبد الباقي وراجع الكتاب لسيبويه ١٨٧/٣ - ١٨٩ ، المقتضب للمبرد ٣٠٧/٣ ، شرح الكافية للرضي ٣٦٨/٢ ، توضيح المقاصد للمرادي ٢٤١/٣ البحر المحيط ١١٠/١ ، ٢٧١ ، ٢٤/٣ ، ٦٨ ، ١٠٢ ، ١٠٦ ، ٣٣٦ والتبيان للعكبري ٥٤/١ ، البنيان في غريب اعراب القرآن لابن الأنباري ١٣١ ، ١٣٦ .

جنس للمعطوف » (٦٤) ويقول في قوله تعالى « أو كلما عاهدوا عهدا نبذه فريق منهم » (البقرة /١٠٠) « الواو للعطف على محذوف معناه أكفروا بالآيات البينات وكلما عاهدوا » (٦٥) ٠

ويقول في قوله تعالى : « أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا » (الكهف /٥٠) « الهمزة للانكار والتعجيب كأنه قيل : أعقيب ما وجد منه تتخذونه وذريته أولياء من دوني وتستبدلونهم بي بئس البدل من الله أبليس لمن استبدله فأطاعه بدل طاعته » (٦٦)

وفي قوله تعالى : « أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر أو يرسل عليكم حاصبا ثم لا تجدوا لكم وكيلا » (الاسراء /٦٨) يقول : « الهمزة للانكار والفاء للعطف على محذوف تقديره : انجوتم فأمنتم فحملكم ذلك على الاعراض » (٦٧) ٠

هذا الوجه التقديري هو أكثر الوجوه التأويلية حضورا في موقف « الزمخشري » من تأويل هذا التركيب ، وهو مقابل لما عليه الجمهور القائم على تقديم الهمزة من تأخير وليس في النظم حذف وتقدير ٠

ويذهب الزمخشري الى وجه آخر يجمعه الى السابق على سبيل الاحتمال يقول في قوله تعالى : « أفغير دين الله يبغون وله أسلم من في السموات والارض طوعا وكرها واليه يرجعون » (آل عمران /٨٣) « دخلت همزة الانكار على الفاء العاطفة جملة على جملة والمعنى : فأولئك هم الفاسقون فغير دين الله يبغون ثم توسطت الهمزة بينهما

---

(٦٤) الكشاف ٢٤٦/٣ ٠
(٦٥) السابق ٣٠٠/١ ٠
(٦٦) السابق ٤٨٨/٢ ٠
(٦٧) السابق ٢٥٧/٢ ٠

ويجوز أن يعطف على محذوف تقديره أيتولون فغير دين الله يبغون » (٦٨) « ابن هشام » يذهب الى أن « الزمخشرى » فى هذا يجمع بين مذهب الجمهور وبين ما هو غالب على تأويله ولكن شارح المغنى « الدمامينى » يرى أن هذا دال على أن « الهمزة » أقحمت بين المعطوف عليه « أولئك هم الفاسقون » وبين العاطف والمعطوف « فغير دين الله يبغون » (٦٩) والقول باقحام الهمزة لا اتبين له وجها دلاليا ، ولا اتبين معه مبدأ ما هو فى حيز الاستفهام ، ففى قول الكشاف « ثم توسطت الهمزة بينهما » غموض .

وفى قوله تعالى : « أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم ان الله على كل شيء قدير » (آل عمران /١٦٥) يقول : « الهمزة للتقرير والتقريع ، فان قلت : علام عطفت « الواو » هذه الجملة ؟ قلت : على ما مضى من قصة أحد من قوله « ولقد صدقكم الله وعده » ويجوز أن تكون معطوفة على محذوف كأنه قيل : أفعلتم كذا وقلتم حينئذ كذا » (٧٠) أى أن مجموع قوله « لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا » معطوف على قوله « لقد صدقكم الله وعده » وهو ليس عطف قصة على قصة بل عطف موقف على آخر فى قصة واحدة ، وهو من قبيل عطف جملة استفهام انكارى توبيخى على جملة خبرية . والوجه الآخر يجعل العطف فى حيز الاستفهام الانكارى كما هو الغالب على مسلكه فى التأويل .

والزمخشرى فى الوجه الأول لم يصرح هنا بأن « الهمزة » توسطت بين الجملتين كما قال فى الاية السابقة ، فهل يريد هنا أن الهمزة واقعة فى حيز المعطوف كما هو مذهب الجمهور ؟ ذلك ما يؤخذ من ظاهر بيانه ، فاذا جئنا الى مقاله فى قوله تعالى : « ويقول الانسان أاذا

---

(٦٨) السابق ٤٤١/١ .
(٦٩) المغنى وحاشية الأمير ١٥/٢ .
(٧٠) الكشاف ٤٧٧/١ .

ما مت لسوف أخرج حيا * أو لا يذكر الانسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا » (مريم /٦٦-٦٧) فانه يجعل « الواو عطفت « لا يذكر » على « يقول » ووسط همزة الانكار بين المعطوف عليه وحرف العطف ، يعني أيقول ذاك ولا يتذكر حال النشأة الاخرى ، فان تلك أعجب وأغرب وأدل على قدرة الخالق » (٧١) فهو لا يجعل ذلك من عطف الاستفهامية على الخبرية على نحو ما نراه في مذهب الجمهور من أن الهمزة مقدمة على العاطف من تأخير ، وحق العاطف أن يتقدم عليها بل ينحو « الزمخشري » منحى آخر يتفق مع الجمهور في عدم تقدير المعطوف عليه ويخالفه في موقع الهمزة ، فهي عنده هنا مؤخرة من تقديم وعند الجمهور مقدمة من تأخير ، وعلى ذلك فالزمخشري لم يرجع الى مذهب الجمهور كما يزعم « أبو حيان » (٧٢) واذا ما نظرنا فيما ذهب اليه « الزمخشري » هنا من أن مدخول الهمزة هو « يقول » فالأمر يؤول الى أن تكون الهمزة أيضا داخلة على « الواو » في « ويقول » فكأنه قيل : او يقول الانسان ولا يذكر ومقتضى هذا أن يعود « الزمخشري » الى تقدير معطوف عليه بين الهمزة والواو ، ويبقى على مذهبه هنا حاجته الى بيان وجه تأخير الهمزة وتسليطها نظما على المعطوف « يذكر » فان في العدول الموقعي للاداة اعرابا عن الابلاغ في دلالة ما ، ولعله يومىء بقوله « يعني أيقول ذاك ٠٠٠ الخ » الى أن عدم التذكر هو الأحق بالابلاغ في الانكار من أن عدم التذكر هو سبب القول أاذا ما مت لسوف أخرج حيا ، وكأن « الزمخشري » يجعل القول في حيز الانكار دلالة ، وان لم يكن في حيز الهمزة نظما ايماء الى أن السياق ليس للاخبار عن الانسان بالقول بل لانكار الامرين معا : عدم التذكر والقول ، ولعدم التذكر مزيد اعتناء بالانكار من أنه سبب هذا القول ، فنقلت الهمزة من موقعها اليه نقلا موقعيا لا دلاليا ٠

---

(٧١) السابق ٥١٨/٢ ٠

(٧٢) البحر المحيط ٢٠٧/٦ ٠

وحديث « الزمخشرى » هنا أكثر وضوحا وتحديدا فان جعلناه تفسيرا لما فى كلامه عند قوله تعالى « أفغير دين الله يبغون » (آل عمران /٨٣) وما فيه عند قوله تعالى « أو لما أصابتكم » (آل عمران /١٦٥) من غموض يكون « الزمخشرى » قد جمع بين وجهين ليس احدهما مذهب الجمهور ولا يكون كما زعم ابن مالك و « أبو حيان » انه عاد الى مذهب الجمهور (٧٣) .

والزمخشرى فى قوله تعالى : « وكانوا يقولون أ اذا متنا وكنا ترابا وعظاما . أانا لمبعوثون أو آباؤنا الأولون » (الواقعة /٤٧ - ٤٨) ينحو منحى آخر لا هو كالغالب عليه من تقدير معطوف عليه هو مدخول الهمزة ولا كمذهب الجمهور ولا كالذى جعله فى « او لا يذكر الانسان » بل يجعل « الهمزة» فاصلا بين المعطوف عليه والمعطوف مصححا لذلك العطف تصحيحا نحويا كما يفعل الضمير « أنت » فى قوله تعالى « أسكن أنت وزوجك الجنة » (البقرة /٣٥) يقول : « دخلت همزة الاستفهام على حرف العطف ، فان قلت : كيف حسن العطف على المضمر فى « لمبعوثون » من غير تأكيد ينحن ؟ قلت : حسن للفاصل الذى هو الهمزة ، كما حسن فى قوله « ما أشركنا ولا آباؤنا » لفصل « لا » المؤكدة للنفى (٧٤) فهل هو ذاهب الى أن الهمزة هنا لا تؤسس معنى استفهاميا بل تؤكد ما فى قوله « أاذا متنا » مثلما هى فى « أانا لمبعوثون » ويكون مآل النظم أاذا متنا وكنا ترابا وعظاما انا لمبعوثون وآباؤنا » فتكون الهمزة فى « او آباؤنا » كوظيفة « لا » فى « ما أشركنا ولا آباؤنا » فان كان ذلك فلن يستقيم ما دفعه به » أبو حيان » فى مثلها من سورة (الصافات /١٦-١٧) اذ ذهب الى أن همزة الاستفهام لا تدخل الا على الجمل لا على المفرد ، لانه اذا عطف على المفرد كان الفعل

---

(٧٣) شواهد التوضيح والتصحيح لابن مالك /٣١ ، والبحر المحيط ١٨٣/٢ ، ٣٢٢/٤ ، ٣٤٩ ، ٦٠/٦ ، ٢٠٧ ، ٢٦٨/٧ ، ٣٨٢ .

(٧٤) الكشاف ٥٥/٤ .

عاملا فى المفرد بوساطة حرف العطف وهمزة الاستفهام لا يعمل فيما بعدها ما قبلها(٧٥) ذلك أن الهمزة هنا مؤكدة لا مؤسسة دلالة استفهامية كمثل « لا » فى « ولا آباؤنا » لم تأت مؤسسة نفيا بل مؤكدة ما فى « ما » من دلالة ولتفصل بين المعطوف عليه والمعطوف و « ابو حيان » ذاهب الى أن « لا » هنا فاصل اغنى عن الفصل بالضمير بين المتعاطفين(٧٦) والعلاقة بين « لا » وهمزة الاستفهام الانكارى فى الدلالة ظاهرة ، فان مآل الانكار نفى . فاذا ما صح الفصل فى مثل هذا بلا فلم لا يصح الفصل بهمزة الاستفهام الانكارى التى لم تؤسس هذه الدلالة بل تؤكدها .

المهم أن « الزمخشرى » لم ينظر فى هذه الاية الى ما فى « الهمزة » من دلالة على الاستفهام بل الى ما تقوم به من فصل ، فلم يكن ما بعد « الواو » معطوفا على مقدر ولم تكن الهمزة مقدمة من تاخير أو مؤخرة من تقديم كما كانت فى آيات آخر على مذهب الجمهور أو الزمخشرى بل كانت فى نمط تركيبى جديد .

واذا ما كان «المعرى» و «الزمخشرى» وتابعوهما يغلب عليهم الذهاب الى تقدير معطوف عليه هو مدخول «الهمزة» فتكون الاستفهامية ابتدائية مستأنفة مخالفا بذلك الجمهور فانه يكون بذلك بعيدا عن اشكال العطف بين الخبر والانشاء بينما الجمهور فى ذهابهم الى أن « الهمزة » مقدمة من تأخير يجعلون جملة الاستفهام معطوفة على أخرى مما يدفع مانعى العطف بين الانشاء والخبر منهم الى تأويل ذلك العطف حين يكون المعطوف عليه غير مناسب لجملة الاستفهام فى مآل المعنى على اننى قد نظرت فى مآل المعنى فى جميع المواقع التى دخلت فيها « الهمزة » على الواو العاطفة أو

---

(٧٥) البحر المحيط ٣٥٥/٧ .

(٧٦) السابق ٢٤٦/٤ ، وانظر الاصول فى النحو لابن السراج ٧٨/٢-٧٩ وانظر مشكل اعراب القرآن للقيسى « ٢٢٧/١ ، ٣٢٣ » فان فيه اعتراضا على جعل « لا » فاصلة من أن الفاصل يأتى من قبل العاطف وليس من بعده ، فهى ليست هنا فاصلة بل مؤكدة « لما » لطول الكلام .

الحالية وهى ستة وخمسون موضعا فى الذكر الحكيم فتحقق لى ان الاستفهام فى جميع هذه المواضع غير دال على حقيقة معنى الاستفهام « طلب حصول صورة الشىء فى الذهن » بل هى الى معنى التقرير او الانكار الذى يغلب عليه أن يكون توبيخيا ومثل هذا هو الى معنى الخبر .

ومجمل القول فى مسالك تأويل العطف بين الانشاء والخبر ع.. ما نعيه انهم يضربون فى خمسة مسالك رئيسة هى :

١ ـ تأويل احدى الجملتين بمعنى الأخرى تأويلا يكشف عن ... التناسب .

٢ ـ تقدير معطوف عليه مناسب للمعطوف فى نوعه ودلالته .

٣ ـ صرف مناط العطف عما فيه اختلاف الى ما فيه تناسب نوعى وان طال الفاصل ما دام الفاصل ذا قربى .

٤ ـ صرف مناط العطف من الجمل التى هى محل الوصف بالخبرية والانشائية الى الاغراض والمقاصد .

٥ ـ تأويل معني العاطف وصرفه الي معني آخر غير معنى العطف .

هذه المسالك متفاوتة قوة وضعفا وقربا وبعدا ، فتقدير معطوف عليه أيسر ادراكا وان لم يكن ادنى دائما دلالة فان ذلك الى السياق وبعض هذه المسالك قد يدق أحيانا ويبعد كتأويل احدى الجملتين بمعنى يناسب الأخرى ففى ذلك دقة قد تعيق الابلاغ فى تحقيق المعنى المؤول اليه وتحريره ، لان هذا ضرب فى استكناه المعانى يحتاج الى فراسة تأويلية هى الى الموهبة أقرب .

وبعض آخر من هذه المسالك قد يوغل فى الدقة ويبعد فى السفر كصرف مناط العطف الى الاغراض والمقاصد فهو ابعاد فى السفر فى أدغال النص واغواره ، وتلك التى دونها قطع النياط .

مذهـــب المجيــزين

ذهب جماعة من أهل العلم الى صحة العطف بين الانشــاء والخبـر ، وينسب هذا الى « سيبويه » من أنه قال : « وأعلـم أنه لا يجـوز « من عبدالله ؟ وهذا زيد الرجلين الصالحين » رفعت أو نصبت ، لأنك لا تثنى الا على من أثبته وعلمته ، ولا يجوز أن تخلط من تعلم ومن لا تعلم فتجعلهما بمنزلة واحدة ، وانما الصفة علم فيمن قد علمته »(١) .

فاذا بالصفار « تلميذ ابن عصفور » يذهب الى أن « سيبويه » انما منع صحة العبارة من جهة الوصف لا من جهة العطف ، اذ أن الصـــفة اينما تكون لمن علم لا لمن جهل فاستفهم عنه ، وليس فساد العبارة من عطف خبر على انشاء فانك ان أزلت الوصف هنا صحت العبـارة مع بقاء العطف (٢) .

فالصفار مستنبط ذلك من مقالة « سيبويه » بمفهوم المخالفة وهـذا السبيل فى استنباط المعاني من النصوص له ضوابط قـد بينتها فى بحث آخر (٣) ومقالة سيبويه تحتمل أنه لم يخصص الوصف بعلة صحة العبارة بل ذكره من انه كان بصدد صحة وقوع الصفة على ما تجهـل وليس بصدد صحة عطف الخبر على الانشاء فعنايته هنا الى بيان خاصية الوصف لا الى بيان حكـم العطف بين الانشاء والخبر ، فذكر الوصف هنا من باب ما يسمى بتخصيص الاثبــات لا من باب تخصيص الثبـوت(٤) والاول لا يقيد حصرا وليس من باب مفهوم المخالفة ، ولذلك يقول « ابن

---

(١) الكتاب ٢/٦٠ « ت/هارون » .

(٢) ينظر : المغنى ٢/١٠٠ ، الاشباه ٤/٧ (ت / طه عبد الرءوف سنة ١٣٩٥) ـ الطباعة الفنية ـ مكتبة الكليات الأزهرية ، الاتقان ١/١٩٩ .

(٣) ينظر سبل الاستنباط من الكتاب والسنة ص ٢٧٧ .

(٤) ينظر دلالة الألفاظ عند الاصوليين ص١٥٩ـ١٦٠ .

هشام » : « لا حجة فيما ذكر الصفار اذ قد يكون للشيء مانعان ويقتصر على ذكر احدهما لأنه الذى اقتضاه المقام » (٥) .

وأبو حيان يصرح كثيرا بصحة العطف بين الانشاء والخبر وأن ذلك مذهب « سيبويه » فيدفع مذهب المانعين ناقدا تأويل « الزمخشرى » ومشايعوه ما جاء فى الذكر الحكيم من ذلك العطف(٦) وهو حين اعتمد على « سيبويه » نقل كلامه فغلط عليه وتصرف فى كلام » الصفار « فوهم فيه فنقده « ابن هشام » ورده(٧) .

وكذلك ذهب « المالقى » الى صحة ذلك العطف ، وهو فى حديث « الواو » العاطفة يقول : « فان عطفت جملة على جملة لم يلزم تشريك فى اللفظ ولا فى المعنى ولكن فى الكلام خاصة ، ليعلم أن الكلامين فأكثر فى زمان واحد أو فى قصد واحد ، فلذلك جاز أن يعطف بها اذ ذاك جملة خبرية على مثلها وعلى طلبية ، وجملة طلبية على مثلها وعلى خبرية فتقول : قام زيد واقعد ، وعلى هذا يجوز : بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله ، فالواو عطفا طلب ـ وهو الدعاء ـ على الخبر ، وحكى من كلام « البديع » (٨) : « ظفرنا بصيد وحياك الله أبا زيد » وتقول : قم وقعد زيد ، وقم واقعد ، وقم ولا تقعد (٩)

وذهب « البهاء السبكى » الى أن البلاغيين متفقون على منعه وظاهر كلام النحاة جوازه ، ولا خلاف بين الفريقين لأنه عند من جوزه يجوز لغة

---

(٥) المغنى ٢/١٠٠ .

(٦) البحر ١/١١٠ ، ١٨٣ ، ٢٧١ ، ٣/٢٤ ، ٦٨ . ١٠٢ . ١٠٦ . ٣٣٦ . ٦/١٩٥ . ٤٧٠ . ٧/٥٦ . ٨/٣٤٢ .

(٧) السابق ١/١١١ ، وانظر المغنى لابن هشام ٢/١٠٠ .

(٨) هو بديع الزمان الهمزانى فى المقامات .

(٩) رصف المبانى للمالقى ص ٤٧٨ وانظر معه الأشباه للسيوطى جـ ٤/٣ ـ ٧ .

ولا يجوز بلاغة واختلفوا فى « باسم الله وصلى الله على محمد » فى اثبات الواو واسقاطها (١٠) ولم يرتض « أبو يعقوب المغربى » القول بأنه يجوز لغة ولا يجوز بلاغة ، لأن الجائز لغة ما لم يكن نادرا لا ينافي بلاغة(١١) وعندى ان « البهاء السبكى » لو عكس لأجاد وأبدع

ويشيع فى تفسير « الطاهر بن عاشور » الرغبة فى العطف بين الخبر والانشاء : يقول عند قوله تعالى « وبشر الصابرين الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا ... الاية /١٥٧ ـ البقرة : « جملة « وبشر الصابرين » معطوفة على « ولنبلونكم » ... وهو عطف انشاء على خبر ، ولا ضير فيه عند من تحقق أساليب العرب ورأى فى كلامهم كثرة عطف الخبر على الانشاء وعكسه » (١٢) .

وفى قوله تعالى : « ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وانه لفسق » (الأنعام /١٢١) يقول : « وجملة « وانه لفسق » معطوفة على جملة « ولا تأكلوا » عطف الخبر على الانشاء على رأى المحققين فى جوازه ، وهو الحق ، لا سيما اذا كان العطف بالواو ، وقد أجاز عطف الخبر على الانشاء بالواو بعض من منعه بغير الواو ، وهو قول أبى على الفارسي ، واحتج بهذه الآية كما فى مغنى اللبيب(١٣) .

فى كلام الطاهر هنا غموض ، اذ يدل على أن الفارسى يجيز عطف الخبر على الانشاء بالواو وانه احتج بقوله « وانه لفسق » وليس كذلك بل كلامه فى عطف اسمية على فعلية وليست الآية المذكورة مما احتج بها فى ذلك ومراجعة (المغنى) (١٠١/٢) دالة على ما نقول .

---

(١٠) عروس الافراح ٢٦/٣ـ٢٧ .
(١١) مواهب الفتاح ٢٦/٣ .
(١٢) التحرير والتنوير ٥٦/٢ .
(١٣) السابق ٤١/٨ ، وانظر مغنى اللبيب ١٠٢/٢ .

وفى قوله تعالى : « يا أيها النبى انا أرسلناك شهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا وبشر المؤمنين » (الأحزاب/٤٦ ـ ٤٧) يقول : وبشر المؤمنين عطف على جملة « انا أرسلناك » عطف الانشاء على الخبر لا محالة وهى أوضح دليل على صحة عطف الانشاء على الخبر اذ لا يتأتى فيها تأويل مما تأوله المانعون ... فالجملة المعطوف عليها اخبار عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأنه أرسله متلبسا بتلك الصفات الخمس وهذا أمر له بالعمل بصفة المبشر ، فلاختلاف مضمون الجملتين عطفت هذه على الأولى(١٤) .

وفى قوله تعالى : « وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين » (الصف / ١٣) يقول : « والذى استقر عليه رأيى الآن أن الاختلاف بين الجملتين بالخبرية والانشائية اختلاف لفظى لا يؤثر بين الجملتين اتصالا ولا انقطاعا ، لأن الاتصال والانقطاع أمران معنويان وتابعان للأغراض ، فالعبرة بالمناسبة المعنوية دون الصيغة اللفظية وفى هذا مقنع »(١٥) .

و « الطاهر بن عاشور » من أكثر مفسرى العصر للذكر الحكيم عناية بالخصائص البيانية للذكر الحكيم ، وله فى ذلك دقائق وفرائد مما يجعل تفسيره جديرا بالمرجعية فى هذا .

والشيخ « عبد المتعالى الصعيدى » يذهب الى أن « الفصل للاختلاف فى الخبر والانشاء حكم نحوى لا يصح أن يعد فى اعتبارات الفصل والوصل ، فهو لا يرجع الى مقام يقتضيه حتى يصح أن يذكر فى هذا العلم وانما يرجع الى منع جمهور النحويين له »(١٦) .

---

(١٤) السابق ٥٧/٢٢ .

(١٥) السابق ١٩٧/٢٨ ، وانظره أيضا فى ج ٤٦١/٢ ، ٩٥/٤ ، ١٧٠ ، ١٤١/٦ ، ٢١٠/٢٩ .

(١٦) البلاغة العالية ص ١٠٦ (ت/ الدكتور عبد القادر حسين سنة ١٤١١ ـ مكتبة الآداب بالقاهرة) .

ظاهر كلامه منع أن يكون الاختلاف خبرا وانشاء مرجعا بلاغيا فى تأويل ترك العطف بينهما ، وفى هذا دلالة على أنه اذا لم يكن فى المقام مقتض لترك العطف بين الخبر والانشاء سوى الاختلاف فى هذا فان العطف بينهما هو الآنس وبذلك يجعل مرجعية ترك العطف « مقتضيات الفصل » ثلاثة أشياء ليس الاختلاف خبرا وانشاء منها فقد جعل هذه المقتضيات : غياب الجامع والاستئناف البيانى ، ودفع الايهام(١٧) .

وهذا الذى ذهب اليه الشيخ « الصعيدى » من منع أن يكون الاختلاف خبرا وانشاء من مقتضيات ترك العطف هو الأليق بالتأويل البيانى والأقرب الى واقع بناء لغة النص ابداعا ووحيا ان ما بين الانشاء والخبر من فارقات لا يتعاند مع دلالة العطف الوظيفية سواء فى بناء الجمل الممتدة التى قد تبلغ مدى نظميا مبسوطا أو فى بناء الصور الكلية المشكلة النسيج اللغوى للنص .

---

(١٧) السابق ١١١ - ١١٢ .

« فاصلة »

العطف وبناء النص

العطف يناسق بين عناصر القول ذو دلالة وظيفية تختلف باختلاف المعطوفات وباختلاف النواسق وباختلاف الأغراض الجزئية والكلية للقول ، وباختلاف المناخات والملابسات والمساقات التى يكون فيها .

تلك حقيقة دلالية لا تخفى . فليس العطف دائما يرمى به الى التشريك فى حكم أعرابى أو فى قيد من قيود العبارة ، وليس دائما يرمى به الى خلق تأسيس تواصلى بين العناصر ، وليس دائما هو الرافد الفريد او الرئيس فى تحقيق ذلك التواصل ، فان كان كذلك دائما فانما هو فى مطارحات الدهماء أما فى عالم الابداع فالأمر على غير ذلك .

من العسير دراسة علاقات التماسك فى أى عمل ابداعى وتفسيرها بعيدا عن الفقه الواعى لبنية النص الكلية ، فان لكل نص منهجا خاصا فى بنائه وتشكيله ، ولا توجد قواعد ملتزمة فى بناء النص عند شاعر فضلا عن أن تكون فى شعر حقبة أو بيئة أو لغة ما ، فلكل ذاتيته وتفرده .

فى كل نص ظواهر تركيبية صغرى وكبرى وتفسير كل فى ضوء الأخرى فى حركة ارتادية معين على التعمق فى فقه كل ولا سيما ظاهرة علاقة التماسك الجزئى والكلى فى النص التى يؤدى فيها العطف عملا رئيسا . ومن هنا يبرز دور السياق فى فقه التكوين النصى ومظاهر الابداع فى علاقات التماسك الجزئى والكلى ومنزلة العطف فى ذلك ، ومظاهر التماسك كثيرة والعطف يجد فى كل مقتضيا حثيثا للقيام بدوره الذى يختلف باختلاف أمور كثيرة أشرت الى بعضها .

فى بناء النص ما هو ثابت وما هو متحول : البنى الأفقية المتمثلة فى نظم الجملة وترابط عناصرها أيا كان امتدادها هو الثابت ان نظرنا اليه صيغة نحوية فليس للشاعر أن يخرج عن موروث العربية فى بيئاتها المختلفة زمانا ومكانا ومذهبا .

والبنى الرأسية الماثلة فى العلائق بين العناصر الأفقية هو المتحول الذى لا يمكن اقامة معايير واطر له ، بل هو من فيض النفس المبدعة وعلى الرغم من أن النمط التكوينى الأفقى ثابت والآخر متحول فانهما يشكلان لحمة النص وسداه ٠

ولا تكون الحركة التأويلية للنص حركة مستقيمة بل هى حركة ارتدادية دائرية تنبعث أولا من النظرة الاستكشافية فى العلائق الرأسية بين الجمل تتلمس اتجاهات المعنى الكلى وعلاقاته الممتدة امتدادا رأسيا يمكن فى ضوئها استبصار بعض علاقات التماسك فى البنية الأفقية للنص لينطلق منها الى محاولة استبصار كينونية الحركة الرأسية للمعنى ، وهكذا تتكرر الحركة الترددية فى فقه المعنى على نحو يزداد فيه استبصار علائق التماسك بازدياد التردد الانعكاسى فى تأويل النص ٠

واذا ما نظرنا الى (العطف) وهو صورة من صور التماسك ألفينا أن وظيفته فى البنية الأفقية تختلف عنها فى البنية الرأسية : فى الأولى ارتباطه الوظيفى بالنمط المعيارى المستمد من نحو اللغة المثال ارتباط ظاهر لا يكاد الفعل الابداعى فيه يكون ذا فاعلية تمثل تفردا ذاتيا للمبدع كمثل ما هو فى الأخرى فان ارتباطه الوظيفى بالفعل المقالى المتحول غير مرهون بأطر موروثة بل هو مرهون بالفعل الابداعى أكثر منه بالنمط المعيارى ٠

واذا ما كان البلاغيون يذهبون الى يسر فقه دلالة العطف فى البنية الأفقية سواء كان العطف بين مفردات أو ما هو فى مقامها عندهم مما يسمى بالجمل الافرادية (التى لها محل اعرابى) والى أن فاعلية التلقى وبلاغته انما تكون فى العطف بين الجمل التى لا محل لها من الاعراب بتجاوزها العنصر الافرادى وانعتاقها من أسر الحكم الاعرابى وما شابهه ـ البلاغيون حين انطلقوا من ذلك كانوا على مشارف الاتقان تنظيرا ولكنهم اتجهوا إلى أن يقيموا للعطف أنماطا للبقاء والفناء ورسموا مناخات لذلك ، فكانت حركتهم تلك غير آنسة بطبيعة الابداع فى بناء النص ، وان تكن تلك

الحركة ماخوذة من نصوص ابداعية ولكن كان الأعلى ملاحظة أن ثم ما هو متمرد على المواضعة فى عالم الابداع ، لأن روح التحول هى التى تحقق وجوده ، فان كل نص ذو منهاجية خاصة فى تكوينه الذاتى المستمد من الاقتدار الابداعى عند صاحبه ، وما ذكره البلاغيون من أنماط العطف وتركه لا تصلح أن تكون أنماطا ثبوتية ولذا كان التحول عنها فى سياقات أخرى للأجناس البيانية نفسها جد ظاهر ، فكان العطف ابداعا فى الاتصال الى غاية والانقطاع الى غاية وكان تركه كذلك فى التوسط بينهما، ومن ثم سعى أولئك الى استحداث أسماء لهذه التحولات حينا والى التأويل وصرف الظواهر عن واقعها الابداعى الى ما تتشاكل به مع الأنماط التى أقيمت ، ففناء العطف أو بقاؤه ليس مرده دائما العلائق النوعية أو التوظيف النحوى بين الجمل أو الدلالة السطحية لكل بل مرده الى أمر أعمق غورا وأبعد مدى من التناظر النوعى أو التشاكل النحوى بينهما • مرده الى أمر فى ذات المبدع التى تستمد اقتدارها من روافد عديدة تختلف باختلاف المبدعين لا يتأتى حصرها أو عدها •

واذا ما كان على المبدع فى بناء الجملة الالتزام بمواضعات وأنماط الاعتلاق الدارجة فى الحياة الباكرة للغة الانسان على نحو ما هو مسطور فى أسفار علماء اللغة ، فان نحو النص ابداعا وليس نحو الجملة ينبغى ألا يكون فيه لأنماط علاقات التماسك الموروث سلطانا ، بل المبدع طليق فى بناء لغة النص ، لا تتسلط عليه حتمية التشاكل بين عناصره ملفوظا وملحوظا فانه القائم بحق الرحم الأول فى لغة النص ، وهو الزعيم بوحدة الوجود النصى فى عالم الابداع •

ان اختلاف الجمل والعبارات فى معانيها وصور تلك المعانى وما بينها من أنواع الترابط الجزئى بين عناصرها ومكوناتها من اختلاف أيا كان مرجعه : (النسبة أو القصد البيانى) لن يكون ذا تسلطان على التواصل بينهما فى بناء لغة النص فضلا عن أن هذا الاختلاف فى صورة المعنى بينهما ليس اختلافا ممتدا الى غير ما غاية • ففى كثير من الصور الانشائية ضرب من المعانى الخبرية مما يبرز ملمحا آخر من ملامح التواصل الرحمى

القريب يبطل أثر المفارقة بين نوع النسبة الجزئية والقصد الجزئي بين الخبر والانشاء عند من لا تمتد بصائرهم الى آفاق النص وأغواره(١) ٠

وما يمكن قوله في باب الخبر والانشـــاء في اطار الملحوظ الوظيفي للانسان لا يتأتى الاستماع اليه في آفاق الابداع الذى لا يرمى الى ما يرمى اليه الاستعمال المقالى للدهماء من التوظيف الاعلامي الاجتماعي للغة ، وهو الذى يجعل بنى اللغة في غير عالم الابداع قابلة لأن تكون مناط حكم أو قيد أو قصد جزئي يشرك بعضها مع بعض فيه أو يحرم من ذلك ، أما في لغة النص ابداعا فانها تتمرد على الأسر في الروابط التشريكي حكما أو قيدا أو قصدا جزئيا بناسق بينهما ٠

العطف في لغة النص ذو وظيفة ابداعية تشكل معنى كيا متمخضا من تفاعل عناصر البنية اللغوية الممتدة للنص وهذه العناصر انما تنسقها رؤية المبدع ولا تنسقها موافقات وضعية موروثة ، وهو حين ينسق خبرا مع انشاء انما يخلق تناسقا رحميا بينهما من ذوب شاعريته الابداعية ، وليس من نسبة تامة بين المكونات الرئيسة لكل بنية ٠ فان تلك النسبة القابعة في جوف تلك البنية لتنصهر بوهج الروح الشعرى المتدفق من المبدع ، فلا يكون لتلك النسبة سلطان على نسق تلك العناصر في النص لحمة وسدى ٠ الجامع بين الأشياء المنسوقة فيه ليس موروثا من كينونة تلك العناصر في حقب الميلاد الأول خارج الفعل الابداعي ، ولا يكون للمبدع الا جمع المتناظرات في عالم الذر من قبل الوجود النصي ٠ كلا٠

ان نسق الأشياء في أى نص ابداعي يكون وفقا لما يخلقه المبدع من

---

(١) هذا التواصل الرحمي القريب الماثل في لحمة النص ليس هو الأعلى في بناء النص علوه في سداه ، وقد كانت عناية البلاغيين بالأول أكثر من عنايتهم بالآخر خلا بعض صور ما سمي بعطف القصة لا كل صوره

علاقات غير موروثة(٣) فان عناصر الوجود الكونى والوجود اللغوى لتتجدد فيه العلائق فيما بينها بتجدد الاستبصار الابداعى فى الكون واللغة فما يكون منسوقا فى مساق ابداعى عند شاعر قد يكون غير ذلك عند آخر ، فعناصر الوجود الكونى واللغوى بينهما رحم عام يفيض عليه المبدع وهجا شعريا يحيلها الى اعتلاق خاص يستوجب نسقها فى ذلك المساق الابداعى ، فالنسق بين عناصر الوجود اللغوى ابداعا رافده ومعياره المبدع نفسه ، وليس العقل الأول أو العلائق الوضعية الموروثة من عالم الذر اللغوى الذى كانت تقبع فيه اللغة قبل وجودها فى النص ، فالتواصل والتعاطف بين الأنساق اللغوية فى النص بحرف من حروف التعاطف وان تباينت صورة المعانى ولوازمها انشاء وخبرا انما هو حق ابداعى يملكه المبدع وحده ، فلا يستلب منه بأى دعوى مادام الفعل الابداعى فى داخله هو المقتضى ذلك التواصل النسقى ، ولذا فان المبدع قد يقيم مرحلة من مراحل البناء النصى على نهج المفاجئة الماثلة فى العدول عما تستشرف النفس الى تلقيه من العطف أو تركه ، فاذا به يبده القارىء بعكس ما هو متوقع أو قابل له ، فيوظف أثر ذلك توظيفا فنيا يلقى بالقارىء فى لذة الحيرة .

اذا ما كان هذا فى بناء النص ابداعا فى لغة الانسان ، فكيف هو فى بيان الوحى ؟

هذا البيان وان اتخذ من لغة الانسان صورا لمعانيه القريبة والنافذة فى الأعماق والعارجة الى سماوات الهدى ، فما كان للغة الانسان

---

(٣) انما قلت أن المبدع يخلق العلاقات بين الأشياء فى الوجود الكونى واللغوى نظرا لما عند غيره من قطيعة بينها فاذا هو باقتداره الابداعى يلمح خفى العلاقة فيبرزها على نحو يجعل من فعله خلقا ، ونحن نستعمل فعل الخلق والابداع بدلالته اللغوية والاصطلاحية الأدبية وليس بدلالته الشرعية فخالق كل شىء ومبدعه هو الله وحده جل جلاله .

ومواضعاتها الدلالية والتركيبية فى بناء ابداعها فضلا عنها فى وظيفتها الحضارية الدارجة فى الحياة اليومية أن تتسلط على بيان الوحى فتذل له حين تأنس وتحجزه حين تستوحش ·

ان فرق ما بين بيان الانسان فى أفقية الوظيفى والابداعى وبين بيان الوحى هو الفرق بين الانسان وخالقه جل جلاله ·

واذا ما كان لتكلمه فى بيان الوحى من القدسية المانعة من مس م. رقمت فيه على غير ما طهارة حسية ومعنويه فان لها من القدسيه الدلاليه المستمدة من صفات الله عز وعلا ما يعصم المرء من دعوى القول بحبسها فى سرادقات المواضعات فى بناء لغة الانسان ، ونحن حين نتوقف عند نحو وبيان لغة الانسان ولا نتجاوزه فى محاولة الاقتراب من حمى فهم بيان الوحى انما تفعل ذلك عجزا عن التوصل الى استكناه أصول كلية لبلاغة التلقى عن الله رب العالمين ، فان من حق القرآن أن نبحث عن أصول لبلاغة تلقيه وفقهه ·

ان بلاغة الاستبصار الشعرى لنص من ابداعات (أبى تمام) مثلا ليست هى هى بلاغة الاستبصار الشعرى لنص من ابداعات غيره كالمتنبى بل ان ثم ما هو أبعد من ذلك : ان الذى يبدع فى فهم شاعر ما لن يكون المبدع فى فهم آخر سواء بسواء · ان لكل متلق رشيد شاعرا يفجر فيه بشعره طاقات الابداع فى استبصار الشعرية فى النص · والمتلقى الموهوب هو الذى يهتدى الى شاعره المفجر طاقاته الابداعية فى التلقى والاستبصار ·

واذا ما كان هذا - أيضا - فى عالم الشعر ، فكيف فى سماء بيان الوحى ؟ ·

انه كلمة الله الحق عز وعلا الى سيد الأنبياء - صلى الله عليه وسلم - « انا سنلقى عليك قولا ثقيلا » وحرى بالمرابطين فى محاولات الاقتراب من حمى فهم بيان الوحى أن يكونوا على ذكر مما كان يعترى النبى - صلى الله عليه وسلم - حين يوحى اليه الذكر الحكيم ، وعلى ذكر من وصفه

بأنه قول ثقيل ، وبأنه مبين وحكيم ومجيد ومبارك الخ ما جاء في وصف الله عز وعلا ذلك الكتاب ، فان في هذا من الهدى ما فيه ، فكيف تسلط مواضعات في لسان الانسان الخاسر ، فيزعم زاعم أن ما لم يكن في تلك فلن يكون في بيان الوحي من أن الله - عز وعلا - خاطب الناس بما تعرف .

ان بيان الوحي حين اصطفى لغة الانسان صورة لهديه انما كان - فيما أزعم - تأنيسا ورحمة ، وهو وان تشاكلت كلماته والأنساق الظاهرة في جملة في أفقها الأول مع الكلمات والجمل في لغة الانسان ، فان وراء ذلك في بناء نصوصه ما يعلو به على ما للانسان في بناء لغته قدر علو الله - عز وعلا - على ذلك الانسان .

وما تلك بدعوة الى تأويل بيان الوحي تأويلا خارجا عن خصائص العربية - معاذ الله أن نفعل - بل هي دعوة الى أن يكون فقه خصائص العربية افرادا وتركيبا سبيلا وليس سلطانا قاهرا ، فنقف بتأويل بيان الوحي عند مدرج من مدارجه زاعمين أن العربية ليس فيها ما يؤذن لنا بما فوق هذا ، فأنى لنا أن نحيط بكل ما كان فيها ؟

نحن على يقين - كما أخبر فحول العربية من السلف - أن غير قليل من العربية لم يبلغنا وكثير منها لم نبلغه ، فكيف نجعل علما غير محيط بكل دقائق ورقائق لغة غير معجزة في لسان الانسان سلطانا على بناء لغة النص في بيان الوحي المعجز ؟ !!

هذا الذي أقول انما هو في آفاق بناء لغة النص فأني أزعم أنه لن يبلغ العبد درجة من درجات النصح في قوله آية من آياته بعيدا عن فقه المعنى الكلي لسياق النص ، وكل تأويل لمعنى آية من آيات الذكر الحكيم خارج السياق القرآني للنص كله هو الى دركات الخطأ أقرب منه الى درجات الإصابة ، أما حسن الاحسان التأويلي فهو عنه بعيد بعيد .

وفرق بين من يضرب آلى الوصول الى وجه من وجوه الصواب ومن يحاول المعراج الى سماوات المعنى الاحساني للنص ؟

ان محاولة المعراج هى الأليق والأوجب على من يسعون الى القيام بشرف النصيحة لكتاب الله عز وعلا وأول من يجب أن يكونوا كذلك هم البيانيون، وان من أحق وجوه البيان بذلك علائق التماسك النصى بما فيها العطف بين الجمل خبرا وانشاء فى لحمة التنسيج اللغوى وسداه فذلك الذى لا يكمل لاحراز الفضيلة فيه أحد الا كمل لسائر معانى البلاغة ٠

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وأمته والحمد لله رب العالمين ٠

فهرس اهم المصادر والمراجع

١ - ارشاد العقل السليم (تفسير أبى السعود العمادى) - بيروت : دار احياء التراث العربى (د ت) .

٢ - الأشباه والنظائر فى النحو للسيوطى (ت / طه عبد الرءوف سعد) ط / ١٣٩٥ - الطباعة الفنية بالعباسية - مكتبة الكليات الأزهرية

٣ - أنوار التنزيل وأسرار التأويل (تفسير البيضاوى) ومعه العناية للشهاب الخفاجى - ط / بيروت : دار صادر (د ت) .

٤ - البحر المحيط ، لأبى حبان الأندلسى ط /٢ سنة ١٤٠٣ - بيروت)

٥ - التبيان فى اعراب القرآن لأبى البقاء العكبرى (ط /١٣٩٩ - التوفيقية بالقاهرة) .

٦ - التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور (ط / الدار التونسية للنشر/ ١٩٨٤م) .

٧ - دلائل الاعجاز لعبد القاهر الجرجانى (ت / مصطفى المراغى ط (٢) المطبعة العربية - المكتبة المحمودية التجارية بالأزهر .

٨ - روح المعانى (تفسير الالوسى) ط / ١٤٠٣هـ - بيروت .

٩ - شروح التلخيص (ط /١٣١٨ - بولاق - القاهرة) .

١٠ - الفتوحات الالهية (حاشية على تفسير الجلالين) لسليمان بن عمر الجمل (ط عيسى الحلبى) .

١١ - الكتاب لسيبويه (ت/ هارون ط الهيئة) .

١٢ - الكشاف للزمخشرى ومعه حاشية السيد الشريف (ط / ١٣٩٢ - عيسى الحلبى بالقاهرة) .

١٣ - المحرر الوجيز لابن عطية (ت/ المجلس العلمى بفاس المغرب / ط سنة ١٣٩٥هـ) .

١٤ - مغنى اللبيب لابن هشام ومعه حاشية الأمير (ط / عيسى الحلبى ،

١٥ - مفتاح العلوم للسكاكى (ط / ١٣٥٦ - مصطفى الحلبى) .

١٦ - نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور للبرهان البقاعى (ط/الهند)

الفهـــرس

رقم الإيداع بدار الكتب ٣٤٧٦/١٩٩٣